مقرر

تاريخ الدولة العثمانية

أستاذ المادة

د/ آية عبدالوارث سليم

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

قائمـــــــــــة المحتويات

أولًا الموضوعات	الصفحة
الفصل الأول: نشأة الدولة العثمانية	
أولًا: أصل الأتراك وموطنهم.	
ثانيًا: نبذة عن الدولة السلجوقية.	
ثالثًا: نشأة الدولة العثمانية.	
رابعًا: عوامل قيام الدولة العثمانية.	
الفصل الثاني:	
توسعات الامبراطورية العثمانية	
أولا: عهد مراد الأول ١٣٦٠- ١٣٨٩م	
ثانيا: عهد بايزيد الأول ١٣٨٩- ١٤٠٢م	
ثالثًا: الامبراطورية العثمانية عقب هزيمة انقرة ١٤٠٢- ١٤٥١م	
رابعًا: محمد الثاني وفتح القسطنطينية ١٤٥١- ١٤٨١م	
الفصل الثالث:	
الإمبراطورية العثمانية وعهد السلاطين العظام	
أولًا: الصراع بين أمراء الامبراطورية العثمانية على العرش ١٤٨١- ١٥١٢م.	
ثانيًا: السلطان سليم الأول ١٥١٢- ١٥٢٠م.	
ثالثًا: السلطان سليمان القانوني ونهاية عصر السلاطين العظام ١٥٢٠- ١٥٦٦م	
الفصل الرابع: الخلافة العثمانية في عصر الضعف(١٥٦٦-١٧٧٤)	
أولًا: أسباب ضعف الخلافة العثمانية.	
- الثورات الداخلية	

- قضية كريت
- الحرب مع الدولة الصفوية
- الحرب مع روسيا.
ثانيًا: عصر الركود والانحطاط المسألة الشرقية.
ثالثًا: عصر عبدالحميد الثاني.
رابعًا: الدولة العثمانية في عهد الاتحاديين.
الفصل الخامس: التنظيم السياسي والإداري للدولة العثمانية
خصائص النظام السياسي والإداري.
- السلطة المركزية العثمانية:
- السلطان.
- الديوان الهمايوني
- الصدر الأعظم
- العلماء
- الوزراء
- معلم السلطان
- قاضي عسكر
- الدفتردار
- الكاتب
ثانيا: الأشكال والصور
ثالثًا: الخرائط.
رابعًا: المراجع

الفصل الأول

نشأة الدولة العثمانية

أولًا: أصل الأتراك وموطنهم.

ثانيًا: نبذة عن الدولة السلجوقية.

ثالثًا: نهاية الدولة السلجوقية.

رابعًا: نشأة الدولة العثمانية.

خامسًا: عوامل قيام الدولة العثمانية.

أصل الأتراك ومواطنهم

كانت بعض الأقوام التركية قد غزت الأناضول قبل الإسلام، فقد جاب الجنود الأتراك الذين دخلوا في خدمة الخليفة العباسي بعد الإسلام بخيولهم سفوح الجبال طوروس وسواحل الفرات عصور طويلة لحساب بغداد. وفي هذه الفترة كانت الأناضول من جملة الأراضي البيزنطية" روما الشرقية".

تمكن العرب من فتح جنوب شرقي الأناضول فقط ودعوة سكانها إلى الدين الإسلامي. وأخذت السلالات العربية الحاكمة الصغيرة تتولى مهمة الغزو والجهاد ضد البيزنط والدفاع عن الحدود الإسلامية في الأناضول، بعد أن ضعفت الدولة العربية العالمية العظمى وفقد الخليفة سلطانه في بغداد. وقد أهمل الهدف الذي كان قائما في عصر صدر الإسلام وهو جعل الأناضول أراضي إسلامية والانتصار على الدولة البيزنطية. ولكن المصادر التاريخية تؤكد أن أول من فكر في فتح الأناضول هم السلاجقة.

في منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية، فالجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية، فهاجرت بحثاً عن الكلا والمراعي والعيش الرغيد والبعض يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عدداً وقوة وهي المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وترك أراضيها بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار وذهب إلى هذا الرأى الدكتور عبداللطيف عبدالله بن دهيش.

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطىء نهر جيحون ، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فاصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحتها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢١ هـ/ ٦٤١م اتصالهم بالعالم الإسلامي في عام ٢٢ هـ / ٦٤٢م تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبدالرحمن بن ربيعة بملك الترك شهر براز، فطلب من عبد الرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، فأرسله عبدالرحمن إلى القائد سراقة بن عمرو، وقد قام شهر براز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بالأمر، فوافق على ما فعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام فيها.

وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الإسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الإسلامية، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية، واعتنق الأتراك الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن الله عنه تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١ هـ، ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين. وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم فتم فتح بلاد بخاري في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وتوغلت تلك الجيوش المظفرة حتى وصلت سمرقند ، وما أن ظهر عهد الدولة الإسلامية حتى صارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة .

وازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولى المناصب القيادية والإدارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب ، وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب .

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شئون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النفوذ الفارسي، الذي كان له اليد المطلقة في إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون.

وقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركي إلى حالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشي المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هي (سامراء)، تبعد عن بغداد حوالى ١٢٥ كم وسكنها هو وجنده وأنصاره . وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

كان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في المشرق العربي الإسلامي، أثر كبير في تغير الأوضاع السياسية في تلك المنطقة التي كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنية من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية .

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي)، لتشمل خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى، وكانت الرى في إيران ثم بغداد في العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية في خراسان وما وراء النهر (كرمان) وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى سلاجقة الروم، وكانت تتبع السلطان السلجوقي في إيران والعراق .

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السنى بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية). لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام ٤٤٧ هـ في بغداد

وأن يقضى على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبي عبدالله الجلاب لغلوه في الرفض.

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم(١).

كان طغرل بك يتمتع بشخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة فائقة كما ك- ن متديناً ورعاً عادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد السلاجقة الأتراك في دولة قوية.

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرل بك، فإن الخليفة تزوج من ابنة جفرى بك الأخ الأكبر لطغرل بك، وذلك في عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٩م ثم في شعبان عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسي القائم بالله، لكن طغرل بك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث إنه توفى ليله الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٢م، وكان عمره إذ ذاك سبعين : أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة في مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق(٣)عاماً، بعد

أولا: السلطان (محمد) الملقب ألب أرسلان أى الأسد الشجاع:

تولى ألب أرسلان زمام السلطة في البلاد بعد وفاة عمه طغرل بك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولى السلطة في البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها، وكان ألب أرسلان . – كعمه طغرل بك – قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة

المسيحية المجاورة لـه، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيما للجهاد، وحريصا على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية لقد بقى سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسع خارجى.

وعندما أطمأن على استتباب الزمن، وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة لـه، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية (العبيدية) في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق(١)، وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة (الفاطمي / العبيدى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)(٢)، ثم أرسل قائده الترك أتنسز بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد (الفاطميين) العبيديين ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقى داخل بيت المقدس وفي سنة ٤٦٢ هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر « العبيدى ، وترك الأذان بـ « حى على العمل، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وقال لـه : إذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينار .

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينس امبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن امبراطوريته . ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة « ملاذكرد » في عام ٤٦٣ هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م قال ابن كثير: « وفيها أقبل ملك الروم دومانوس في جحافل أمثال الجبال منالروم والرخ و الفرنج، وعدد عظيم وعدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا

ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقاب وخفار، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، و ألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق، ومنها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له : ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدى المسلمين، والقدر يقول : « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ؟ [الحجر : ٧٢] فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك البخارى بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفئتان ، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم . أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم دومانوس، أسره غلام رومي، فلما

أوقف بين يدى الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال : لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال : كل قبيح، قال : فما ظنك بي ؟ فقال : إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني . قال : ما عزمت على غير العفو والفداء. فأفتدي منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . فقال بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة ألف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . .

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الامبراطور دومانوس الذي بلغ مائتي ألف، حدثاً كبيراً، و نقطة تحول في التاريخ الإسلامي لأنها سهلت على إضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز وأعمدة الامبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين. لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي، في معركة ملاذكرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الاديان . وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين .

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر ولا ينهى . وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال : إن قتلت فهذا كفنى (١) الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصرا الله وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ الموافق ١٠٧٢م ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه (٢)

•• شيء من أخلاق السلطان ألب أرسلان:

(كان رحيم ممالكه في جميع القلب، رفيقاً بالفقراء، وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله وكان يكثر

الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم) (٣)

كتب إليه بعض السعاة في شأن وزيره نظام الملك وذكروا ماله في ممالكه فاستدعاه فقال : خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كان كذب فاغفر له زلته، الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغ أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه فارتدع سائر المماليك خوفاً من سطوته.

وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصى ما وراء النهر إلى أقاصي الشام

ثانيا: ملكشاه وفشله في توحيد الخلافة والسلطنة:

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفرى حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قاورد وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان عين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م.

واتسعت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي .

وأسند ملكشاه المناطق التي سيطر عليها في بلاد الشام لأخيه تاج الدولة تتمش سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وذلك من أجل متابعة الفتح . فأسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصغرى التي كانت تتبع بلاد الروم لمتابعة الفتح سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم (٢) وقد استمرت هذه الدولة ٢٢٤ سنة ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة أبي الفوارس قتلمش بن إسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة (٣) وقد تمكن من فتح أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م، كما تمكن ابنه داود من السيطرة على قونية سنة

٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م ليتخذها عاصمة له . وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية في آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية إلى مدينة سلجوقية إسلامية، وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م(٤) وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام فيها على المذهب السنى وكانوا سببا في نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك الأقاليم، وأسقطوا الخط الدفاعي الذي كان يحمى المسيحية من أوروبا ضد الإسلام في الشرق (١) ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد الشام ومصر بعد أن شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر. وعندما أراد أتسز غزو مصر حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب قبل مواجهة الجيش الكبير الذي أعده الوزير بدر الجمالي في رجب ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ، وقد أدى فشل أتسز إلى مزيد من التشردم، والتمزق السياسي والصراع الدامي، لينتهي الأمر بمقتله سنة ٥٧١هـ/ ١٠٧٨م .

كذلك لم يفلح ملكشاه في جعل الخلافة العباسية تتحول إلى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته إلى الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسي، ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده.

.. وفاته:

توفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد (٤٤٧ – ٤٨٥هـ/١٠٥٥ – ١٠٩٢م) الذي عرفته الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي يهمنا معرفة سيرته ودوره في قوة الدولة السلجوقية .

ثالثا : نظام الملك :

قال عنه الذهبي : « الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير، سعيد، مندين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدر على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته ». تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغى وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه.

وأشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة ، وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آن سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولى على حلب وديار بكر والجزيرة، قال عنه ابن كثير : « من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة » وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي وكذلك كان آق سنقر البرسقى من قواد السلطان محمود السلجوقى، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة ٥٢٠ هـ قتله الباطنيون، وهو يصلى في الجامع الكبير في الموصل، قال عنه ابن الأثير : « وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلى من الليل متهجداً».

ويحدثنا المؤرخ أبو شامة عن آثار السلاجقة لاسيما في زمن نظام الملك : «فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها .

.. ضبطه لأمور الدولة:

لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس، وقالوا ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض النهاس لأذى شديد ، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان فبين له ما في هذا الفعل من الضعف ، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له : افعل في هذا ما تراه مصلحة! فقال له نظام الملك : ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك . فقال السلطان : قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها : أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس،

فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجابه، فأنكر ذلك عليه وقال : إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته

•• حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه : كان يحب العلوم وخصوصاً الحديث شغوفاً به وكان يقول : إني أعلم بأنى لست أهلاً للرواية ولكنى أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ فسمع من القشيري، أبي مسلم بن مهر بزد، وأبي حامد الأزهرى . وكان حريصاً على أن تؤدى المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها فعندما أرسل إليه أبوالحسن محمد بن على الواسطى الفقيه الشافعي أبيات من الشعر يستحثه على المساعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى علي الفتنة ومما قاله أبو الحسن الواسطى من الشعر :

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء حيث يقضى معهم جل نهاره، فقيل له : «إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال : هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسى لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيرى وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو على الفارندى قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال : إنهما إذا دخلا على قالا : أنت وأنت، يطريانني ويعظماننى ، ويقولان في مالا في فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر، وإذ دخل على أبو على الفارندى ذكرنى عيوبى وظلمي، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه .. قال عنه ابن الأثير : « وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء، والفقهاء وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح ... »

كان من حفظة القرآن ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنقل وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره بالأذان ، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات ، وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة : رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت له : ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود له مشافهة وأنا أسجد له في كل يوم مرات، وأنشأ يقول :

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق، قال في هذا المعنى : كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربى ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه . ومن تواضعه أنه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه . وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم.

وفاته

في عام ٤٨٥هـ من يوم الخميس، في العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلى نظام الملك المغرب وجلس على السماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقراء والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومن استشهد هناك من الأعيان ويقول : طوبى لمن لحق بهم .

فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكانه قاصداً مضرب حرمه فبدر إليه حدث ديلمي، كأنه مستميح، أو مستغيث فعلق به، وضربه وحمل إلى مضرب الحرم

. فيقال : إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية (الباطنية)، فانبث الخبر في الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر مظهراً الحزن والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجود بنفسه حتى مات، فعاش سعيداً ومات شهيداً فقيداً حميداً.

وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه . وقال بعض خدامه : كان آخر كلام نظام الملك أن قال : لا تقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات.

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد منهم مقاتل بن عطية حيث قال قال عنه ابن عقيل : بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً، وإحياء لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العالم، ثم ختم له بالقتل وهو مار إلى الحج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا، ملكاً في الآخرة، رحمه الله .

نهاية الدولة السلجوقية

كان للسلطان ملشكاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلا فبايعوه على تولى السلطة لأن أمه تركان خاتون كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه، وقد استمر حكمه حوالي العامين ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وإلى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، حيث توفى هو وأمه ثم جاء من بعده ركن الدين أبو المظفهر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، ثم تلاه ركن الدين ملكشاه الثاني وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع . واستمر حكمه حتى عام ٥١١ هـ/ ١١٢٨م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق . وقد انقرضت دولتهم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م، وذلك على يد شاهنات خوارزم . وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى إلى عدة دول وإمارات صغيرة . ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل السلطان طغرل بك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم . بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أي تعاون من يذكر.

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي وقفت ردحاً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهي السلطنة التي قاومت الحملات الصليبية، واستطاعت أن تحصرها في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى . أما سلطنة سلاجقة الروم فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة . لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية.

*** ومن هذه العوامل :**

١. الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد

٢- تدخل النساء في شئون الحكم .

٣- إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك . ٤- ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوى .

٥- عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

٦. الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى حد المواجهة العسكرية المستمرة ، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق .

. المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

٨. الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الأسباب والعوامل إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها :

(أ) كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهين الشيعة الروافض .

(ب) منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق العربي الإسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية.

(ج) كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنية .

(د) قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإداريا ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

(هـ) وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولا صد الخطر المغولى إلى حد كبير .

(و) رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق .

هذه نبذة موجزة عن السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الإسلام، وإن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الشجعان كلمة الشراذم.

نشأة الدولة العثمانية

يكتنف مرحلة النشأة في تاريخ الدولة العثمانية – شأنها في ذلك شأن – الإمبراطوريات الكبرى– هالة من الغموض تمثل إحدى إشكاليات تاريخها، فلم يتوقع أحد أن تصل الإمارة الصغرى إلى هذا القدر من الشهرة يوماً ما، لذا لم يهتم أحد برصد تاريخها في هذه المرحلة، لذا تستمد الدولة العثمانية تاريخها في مرحلة النشأة من روايات هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة،وتتبعنا في هذا الفصل تاريخ الدولة العثمانية منذ أن كانت إمارة صغيرة تحت قيادة عثمان على الحدود بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، وفتوحات عثمان و العوامل التي ساعدته على النجاح، ثم جهود أورخان وابنه مراد في توسع الدولة وتوطيد أركانها في آسيا الصغرى، ثم تتبعنا جهود بايزيد الأول في إيجاد موضع قدم لدولته في الجانب الأوربي (البلقان). وأخيرالمحنة الغزو المغولي للدولة العثمانية وكيف نجا آل عثمان من هذه المحنة، وجهود خلفاء بايزيد في إعادة البعث العثماني.

خرجت قبائل الغز التركية من وسط آسيا غرباً تحت وطأة البحث عن سبل العيش في رأي) أو تحت وطأة ضربات قبائل المغول في رأي آخر ومهما كان السبب فمما لاشك فيه أن العامل الاقتصادي كان وراء هذه الهجرة الاضطرارية، فمن المعروف أن وسط آسيا منطقة طاردة، فهي : نافورة بشرية، ولكنها كانت كثيراً ما تعجز عن الوفاء بمتطلبات هؤلاء البشر، لذا خرجت الهجرات البشرية الجماعية من هذه المنطقة إلى غرب آسيا وأوربا وأفريقيا عبر العصور. وسواء خرجت قبائل الترك بحثاً عن العيش أو تحت ضربات المغول فإنها فشلت في الحصول على عيش أمن في المنطقة، ففي مثل هذه المجتمعات تكون لقمة العيش من حق القوي، فعلى الأضعف أن يرحل.

توافق تحرك الترك إلى الحدود الشرقية لدولة الفرس مع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، ومع نجاح المسلمين في القضاء على دولة الفرس اعتنق الأتراك الإسلام وانخرطوا في الجيش الإسلامي، وزاد عدد الترك في بلاط الخلافة العباسية.

أما أول ظهور سياسي متكامل لهذا العنصر فكان في شكل دولة السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري في الأقاليم الشمالية الشرقية من أملاك الخلافة العباسية، وكانت قسمين شرقي عرف بسلاجقة الشام وغربي عرف بسلاجقة الروم، وهي دولة سنية تصدت للشيعة البويهيين الذين تسلطوا على الخلافة العباسية فترة من الزمن، فتمكن طغرل بك من القضاء علي البويهيين وعلى كل مظهر شيعي في دولة الخلافة، (١) ووثق علاقاته بالخليفة العباسي وتولى حماية حدوده.

المؤسس عثمان بن أرطغرل ١٣٠١- ١٣٢٦م

وبضعف دولة السلاجقة واندثارها قامت على أنقاضها في الشرق الدولة الخوارزمية، وفي الغرب ظهرت الإمارة العثمانية على حدود آسيا الصغرى ولكن بشكل متأخر عن الدولة الخوارزمية. وعانت الحدود الشمالية الغربية لدولة الخلافة ردحاً من الزمن من التفتت والصراع بين كيانات سياسية صغيرة ضعيفة، كان من بينها هذه الإمارة التي خرجت من رحمها الدولة العثمانية. تنافست هذه الكيانات الصغيرة في التوسع على حساب الدولة البيزنطية التي كانت تعاني من الضعف آنذاك، جاء هذا التوسع بدافع الجهاد لتحقيق مكاسب ومغانم دنيوية وأخروية. وعلى الحدود الشمالية الغربية من هذه الكيانات بزغ نجم إمارة قادها عثمان بن أرطغرل، وبعيداً عن الأساطير التي وردت في أصل العثمانيين فإن الفضل في تأسيس هذه الإمارة يرجع إلى عثمان الذي ولد في عام ١٢٥٨م في الوقت الذي اجتاح فيه المغول دولة الخلافة العباسية.

وتؤكد معظم المصادر العثمانية أن الفترة الأولى من تاريخ الأسرة قبل عثمان لم يكن له حظ من السياسة والصراع العسكري، ولم يتعد دور القبيلة الباحثة عن المراعي الشتوية والصيفية في بيثينيا، أما العثمانيين سعي للتنافس السياسي لم يبدأ إلا مع عثمان، فالظروف التي دفعت القبيلة للمشاركة السياسية لم تأذن إلا في أواخر القرن الثالث عشر، إن الغموض يكتنف حياة القبيلة بما فيها الفترة الأولى من حكم عثمان.

تضافرت الظروف التاريخية والعوامل الجغرافية مع الموهبة القيادية لعثمان في توسيع رقعة هذه الإمارة، فوجودها على التخوم الشمالية الغربية سمح لها بالتوسع على حساب الجار البيزنطي الضعيف بشكل لم يتوفر لإمارات الداخل، وتأتي عبقرية عثمان في أنه وجه قوته كلها إلى البيزنطيين ولم يحاول التوسع على حساب الإمارات الإسلامية الأضعف، حتى أنه داهن السلطان السلجوقي فعمل تحت رايته – اسماً– على الرغم من ضعفه، ليكسب عطفه ويؤمن جانبه، وفي ظل هذه الظروف تمكن عثمان من تحقيق عدة انتصارات على الجيوش البيزنطية واستولى على عدة حصون في الفترة من ١٣٠١– ١٣١٤م بدأت بعدة حصون سقطت في يد العثمانيين أهمها حصون كته ولفكه وآق حصار وقوج حصار وتكرر بيكاري، وتوج فتوحاته عام ١٣١٧ بفتح بروسة أو بورصة بعد حصار دام ثلاث سنوات، وأعجب قائد بروسه بشخصية عثمان فاعتنق الإسلام وأصبح أحد قواده المخلصين وحذا حذوه العديد من قادة بيزنطه، كما نجح عثمان بشخصيته الجذابة في ضم عدد من الجماعات الإسلامية العاملة على الحدود مثل جماعة (غزياروم) أي غزاة الروم وجماعة (الإخيان) أي الإخوان كانوا يهبون أنفسهم لخدمة عمليات الغزو. وعامل عثمان البلدان التي فتحها بعدل ورحمة، من منطلق حبه للجهاد وإعلاء كلمة الله ونشر الإسلام، فكان ذلك سبباً في اتساع ملكه.

وأوضح باحث تركي براعة عثمان السياسية في بيئة الأناضول الشائكة إثنياً ودينياً، فتجاوزت تحالفاته الخطوط القبلية والعرقية والدينية، ونجح في الفصل بين البيزنطيين الذين يتوسع على حسابهم وبين حكام المدن والقرى المسيحيين الذين تعايش معهم وهادنهم وأحسن إليهم فكانوا عونا له وسنداً في حربه مع البيزنطيين والتتار الوثنيين الذين جاءوا إلى المنطقة بدافع الاستقرار ولو على حساب القوى المحلية الموجودة بالفعل ومنها العثمانيين.

وقد اتضحت سياسة عثمان الخارجية وأسلوبه في الإدارة من خلال وصيته لابنه أورخان، التي تعددت رواياتها في المصادر فاخترنا منها ما يلي: " يا بني إياك أن تشتغل بما لم يأمرك به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا، يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني إنك تعلم أن غايتنا إرضاء الله رب العالمين، وان بالجهاد يعم نور

دينا الآفاق، فتحدث مرضات الله ﷻ. يا بني لسنا ممن يقومون بالحرب لشهوة حكم، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت".

أورخان بن عثمان ١٣٢٧- ١٣٦٠م

نظم أورخان عقب توليه الحكم شؤون دولته الداخلية، وأسس جيشاً نظامياً بعد أن كان والده يعتمد على جيش من المتطوعين، وزاد عدد هذا الجيش وحرص على تزويده بثقافة جهادية تضمن له التفوق فيما يخوض من معارك، واستهل فترة حكمه بفتح مدينة نيقوميديا (أزميت الحالية) ١٣٢٧م وهي من أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى، ثم استولى على مدينة نيقيه (إزنك الحالية) عام ١٣٣٠م.) توجه أورخان بفتوحاته ضد البيزنطيين لكنه انتهز الفرص للاستيلاء على الإمارات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، فانتهز الصراع على العرش في إمارة قره سي بعد موت أميرها وقام بضمها إلى أملاكه عام ١٣٣٦م، ثم تفرغ أورخان للبناء الداخلي، لتكتمل دعائم دولته، ثم واتته الفرصة في أواخر أيامه لعبور البسفور والدردنيل إلى الجانب الأوربي عندما حدث صراع على العرش البيزنطي واستعان كونتاكوزين Contacuzene بأورخان لمساعدته ضد خصمه المدعوم بالقوات الصربية والبلغارية، فاستجاب له عام ١٣٥٢م ومكنه من العرش وتزوج من ابنته تيودورا، ثم تباطأت القوات العثمانية في الانسحاب، واستولت القوات العثمانية على قلعة تزيمب Tzympe على الشاطئ الأوربي لخليج غاليبولي واتخذها كرأس جسر لنقل الجنود العثمانيين إلى الجانب الأوربي.

واستغل العثمانيون انهيار أسوار غاليبولي وفرار أهلها منها إثر زلزال ضرب المنطقة، فدخلتها القوات العثمانية ورفضت مغادرتها، واتخذتها قاعدة لها، فانقلب حلفاء الأمس أعداء اليوم. ومن غاليبولي بدأت التوسعات العثمانية في البلقان، وعندما وصل حنا الخامس إلى حكم القسطنطينية هادن أورخان واعترف بفتوحاته في البلقان مقابل تأمين وصول المؤن والغذاء إلى القسطنطينية.

ومن أجل تقوية رأس الجسر العثماني في أوربا نقل العثمانيون مجموعات من بدو الأناضول المسلمين إلى أوربا، وأسسوا لهم قرى تركية جديدة، قسمت تقسيماً إداريا عسكرياً إلى

ميمنة وميسرة ووسطى، وكل منها تحت قيادة سيد غازي تحت قيادة سليمان بن أورخان، لكن موت سليمان بشكل مفاجئ سنة ١٣٥٧م وأسر شقيقه الصغر خليل جعل أورخان يقبل صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي، ثم استأنف مراد ابن أورخان سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م..)

وهكذا لم يكن لاصطلاح " عثماني" مدلول قومي، بل إنه يرتبط بأسرة حاكمة مثله في ذلك مثل مصطلحات الأمويين والعباسيين و السلاجقة، والبويهيين، فحتى القرن التاسع عشر كان العثمانيون يعتبرون أنفسهم مسلمين في المحل الأول، بحيث اتجه ولاؤهم للإسلام ولآل عثمان لا أكثر ولا أقل، هذا برغم وجود اللغة التركية، فبرغم احساسهم بكونهم أتراكا وبأنهم يتكلمون اللغة التركية، إلا أن لفظ" تركي" لم يستعمل في أوج العصر العثماني إلا قليلا للاشارة إلى الرعاة التركمان، ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الجهلة الخشنين الذين يتكلمون اللغة التركية ويقطنون قرى الأناضول وظل على الدوام لقب العثمانيين هو اللقب الذي يلحق بالدولة التي أسس أركانها عثمان بن أرطغرل.

ومن الجدير بالذكر أن عقب موت عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية تم ابنه أورخان السلطة بعد ابيه، وذلك تحقيقا لوصية والده قبل وفاته، والتي لم يوص بها لبكر أولاده " علاء الدين" لميل علاء الدين إلى الورع والعزلة، ومن حسن حظ هذه الدولة الناشئة أن علاء الدين لم يعارض في هذه الوصية التي حرمته من ملك عظيم، بل قبلها مقدما الصالح العام على الصالح الخاص، واكتفى بتدبير الأمور الداخلية التي قلده اياها اخوه أورخان حيث تفرغ الاخير للفتوحات ونشر الراية العثمانية على كل ما وصلت إليه يداه من البلاد المجاورة.

وفي هذا الاطار، فإن عثمان بن ارطغرل إذا كان قد أسس الدولة العثمانية وإليه ينسب اسمها، فإن أورخان بن عثمان قد كرس وجود هذه الدولة، وجعلها تلعب دورا خطيرا في حياة الامبراطورية البيزنطية، وان كان هذا لاينفي حقيقة أن أورخان قد ورث عن والده دولة ليست لها قوانين أو عملة أو حدود واضحة ويحيط بها جيران اقوى منها. ولذلك وجه اورخان وزيره الاول وهو اخوه علاء الدين لاصلاح الأمور الداخلية بالدولة والذي عمد إلى ضرب عملة للدولة من الفضة والذهب ووضع نظاما للجيوش بجعلها دائمة بعد أن كانت قبل ذلك لا تجمع إلا في وقت الحرب وتصرف بعد ذلك.

عوامل قيام الدولة العثمانية .

تعددت عوامل تطور الإمارة العثمانية إلى مرحلة الدولة في عهدي عثمان اورخان ، حيث تنوعت هذه العوامل ما بين عوامل جغرافية ودينية وعسكرية سياسية وكذلك إدارية ، ولتتعاون مجتمعة في أمر تطور الإمارة العثمانية إلى مرحلة الدولة.

أولًا: العامل الجغرافي

كانت الإمارة العثمانية قد شغلت تلك المنطقة من الحدود التي طالت فيها المقاومة البيزنطية بالأناضول ، وبعد أن توسعت الإمارات الآخرى إلى أقصى حدودها حيث كان هذا كفيلا بأن يخلق دولة مستقلة في هذه المنطقة ومن من الثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيبا في عوامل النمو التطور من إمارات الداخل ، والتي لم يكن في استطاعتها أن تتطور وتنمو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها إمارات الحدود .

فالوضع الجغرافي للإمارة العثمانية على حدود الدولة البيزنطية جعلها تحمل عبء الكفاح ضد البيزنطيين ، ونظرت الإمارات التركية باديء الأمر إلى الحرب التي كان يخوضها العثمانيون ضد البيزنطيين علي أنها جهاد ديني فجذبت هذه الحرب الكثر من المحاربين . الإمارات المجاورة لها ، وهو الأمر الذي ساعدها علي الانتصار في الحروب البيزنطية ، وبالتالي أدي إلى نمو الإمارة العثمانية وتحولها إلى مرحلة الدولة.

والشيء الذي يجدر ذكره هو أن الإمارات التركية الواقعة علي حدود العثمانيين لم تتخذ موقفا معاديا من دولة العثمانيين الناشئة ، هذا فضلا عن أن العديد من الإمارات التركية كانت مشغولة عن نمو إمارة العثمانيين بظروف إقليمية أخري ، فلقد كان أولاد جاندار مشغولين بمحاولة الاستيلاء على البلاد الواقعة على ساحل البحر الأسود ، وربما كانوا يحاولون أيضا الاستعداد لمواجهة بعض الهجمات البحرية عليهم ، وفي نفس الوقت كانوا يعملون علي المحافظة على مركزهم أمام ولاة المغول بوسط الأناضول ، ثم بعد ذلك أمام أبناء " آرتنا " ، وكل الهيئات السياسية التركية ذات الحدود المشتركة معهم ، وأما عن دولة القرميانيين التي كانت من المنعة بحيث تواجه بتوفيق كل القوي الكبيرة في وسط الأناضول وجنوبه فقد كانت مشغولة بالفتوحات في أراضي البيزنطيين ، وكانت هذه الدولة التي تحولت إلى إحدي دول

الأناضول ، بعد أن اشتد ساعد الإمارات الساحلية التي أقامها من قبل قوادها ، تحاول المحافظة علي مركزها إزاء " أولاد حميد" وإزاء " القرمانيين ، ذلك بعد أن استولت على قره حصار " وعلي البلاد التابع وجه الخصوص " لأولاد إينانج " ، وأما عن إمارات " منتسا " آيدين " و " صاروخان ،وقرى سي" فإن فتوحاتها وغاياتها لم تكن تتعارض أبدأ مع غايات العثمانيين ولم ينجح البيزنطيون في تحريضها على العثمانيين لأن أعداء آخرين كانوا في مواجهتهم.

وبينما كانت الإمارات الساحلية آخذه في التضعضع نتيجة لمعاركها التي لا تكاد تنقطع مع البيزنطيين ، ومع القوي البحرية اللاتينية ، وبينما كانت هذه الإمارات عاجزة عن أن تحقق بهذه الحروب نتائج طويلة البقاء ، كان العثمانيون لا يفتاون يوسعون حدودهم بخطى بطيئة ولكن حاسمة ، ولم يكونوا يكفون عن مضاعفة قوتهم ، ولقد بلغ من ذلك أن العالم المسيحي لم يحفل بوجودهم إلا بعد أن استولوا غاليبولي" ، هذا في الوقت الذي كانت غزوات " أمور بك أمير " بافلاجونيا قد أهاجت العالم المسيحي وعلي رأسه البابا ، وأدت إلى الاستيلاء على " أزمير علي بمجرد وفاة " أمور يك.

وعلي هذا النحو ، كان الوضع في الأناضول في بداية عهد العثمانيين يسمح لهم بحرية الحركة ، وذلك في ظل انشغال الإمارات التركية الأخرى عن العثمانيين ، وهو ما كانت نتيجته أن العثمانيين لم يكن لهم إلا عدوا واحدا هو بيزنطة . وقد كان لموقعهم الجغرافي أهمية في أنهم وجدوا كل ما يحتاجون إليه من الإمكانيات المادية والمعنوية لفتح الأراضي البيزنطية في الأناضول ولتثبيت أقدامهم فيها ، وجدوا هذه الإمكانيات في العناصر التركية البدوية والقروية والحضرية التي كانت تندفق منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر علي غرب الأناضول ، وقد زاد من أهمية موقعهم استيلاؤهم بسهولة علي جزء كبير من أراضي إمارة " قره سي" ثم اجتيازهم البحر إلى أوروبا ، وإقامتهم في غاليبولي " ، حيث كان هذا عاملا على تقوية بنيان الدولة ، وذلك أن كثيرا من العناصر البدوية وفقراء القري جاءوا ليتوطنوا في الأراضي الخصبة الخالية ، وهاجر كذلك كثير من الفرسان من إمارات وسط الأناضول ، ومن إمارات السواحل كإمارات " صاروخان "وآيدين" و" منتسا" ، وذلك طمعا في الحصول علي الاقطاعيات الغنية بمنطقة الروملي " وهكذا كان العثمانيون يزيدون من قوتهم باستمرار عل الأناضول ، وهذا بفضل موقعهم الجغرافي .

ثانيًا: العامل الديني

نقصد بالعامل الديني ، مدى تأثير اعتناق العثمانيين للإسلام على ن إمارتهم لتصل إلى مرحلة الدولة ، والحقيقة أن مسألة إسلام الأتراك عامة يدور حولها كثير من الآراء ، والأمر الذي لا شك فيه أن الهجرة المبكرة ومنها هجرة الأتراك السلاجقة كانت على اتصال بالإسلام حيث اعتنقت الدين الإسلامي بالفعل وإن كان من الثابت أيضا أن السلاجقة لم تكن لهم معرفة واسعة بتعاليم الدين نفسه ولم يظهروا نفس التحمس والتعصب اللذين كانا عند العرب ، أما الهجرات الت جاءت في أوائل القرن الثالث عشر فلم تخضع لنفوذ الإسلام على الرغم من أنها قد استقرت لأجيال طويلة على حدود فارس ، فالعثمانيون دخلوا شـــه جزيرة آسيا الصغرى وهم في حالة الوثنية وسواء صدقنا الأسطورة التي تروى حول اعتناق (عثمان الدين الإسلامي أو لم نصدقها ، فلا شك أن وجود العثمانيين في وسط إسلامي بين " سلاجقة الروم " كان أكبر عامل في اعتناقهم لهذا الدين.

ولقد كانت دولة " سلاجقة الروم " نقطة الانطلاق لمجاهدي الثغور كانوا يتحركون منها نحو أطراف الأناضول مقابل البيزنطيين ومع ضعف الدولة على أثر الغزو المغولي وخاصة بعد هزيمتها في موقعة " كوسة طاخ ١٢٤٣م ، أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة هربا من المغول إلى الأطراف حيث شكلوا إمارات تركية مستقلة عملت على مهاجمة الأراضي البيزنطية ، وكان المشايخ ورجال الطرق الصوفية يحضون الأتراك على الجهاد ، وعندما قضى على دولة سلاجقة الروم في أوائل القرن الرابع عشر كانت الإمارات التركية قد تكونت في غرب الأناضول ، وقيض لإحداها وهى الإمارة العثمانية أن تلعب دورا خطيرا في المنطقة.

وفي هذا الإطار، فقد كان لاعتناق العثمانيين للإسلام أثر كبير عليهم ، فالإسلام جمع شمل العناصر المتفرقة في شمال غرب شبه جزيرة آسيا الصغرى تحت راية واحدة ، وخلق لها قضية واحدة يتحمسون لها ، خاصة أنه الظروف فـ المنطقة كانت تدفعهم لتبنى فكرة الجهاد المقدس ضد البيزنطيين ، فلقد كانوا من القادمين حديثا إلى الأناضول ، وكانوا أيضا من خلال خدمتهم لسلاجقة الروم لمدة نصف قرن ، قد تمكنوا من استيعاب الموقف في الأناضول ، وبشكل خاص ذلك الفراغ الذي خلفه ضعف سلاجقة الروم وضعف البيزنطيين أيضا كما أن المكان الذي اختاره لهم السلطان علاء الدين في الشمال الغربي تجاه مدينة القسطنطينية " حتم

عليهم أن يكونوا أقرب الإمارات للدولة البيزنطية – وحتم عليهم أيضا تبعية الجهاد ضدهم . وساعدهم على لعب هذا الدور كونهم مازالوا بداة يندفعون بكل قوة في سبيل الجهاد الإسلامي ضد الأعداء ، ولم تكن الحضارة والملذات والقصور قد جعلت حماسهم الديني يخبو بعد ، حيث كانت دولتهم ما زالت على ظهور الخيل ، فطالما أن العمر يمضى بالمجاهد علي ظهر حصانه ، فلتكن الدولة نفسها على ظهر الخيول أيضا . .

ويقرر بعض المؤرخين أن انتصارات أرطغرل وعثمان لم تكن لتحدث لولا عظمة الإسلام) وما غرسه في قلوبهم من حب عميق للقتال في سبيل الله و رغبة صادقة في نشر الدين الإسلامي فلقد كان الدين عاملا مهما حيث استمد عثمان ومن خلفوه قوتهم من الفيض الدائم التدفق من الغزاة أو المقاتلين في سبيل الله، والذي وفدوا من كل أنحاء الأناضول منضمين للعثمانيين لأجل القتال ضد البيزنطيين والسلاطين العثمانيون انفسهم قد تلقبوا بلقب الغازي إذن فإن دولة العثمانيين كانت دولة غزاة ، والذين عضد من دورهم دعم ديني من رجال الدين والطرق الصوفية التي انتشرت في منطقة الأناضول . وكان اشهر هم الشيخ " أده بالي" والد زوجة عثمان مؤسس الدولة العثمانية وكذلك الحاج بكتاش.

والشيء الذي يجدر ذكره هو أن العثمانيين اتبعوا سياسة التسامح الديني مع رعاياهم المسيحيين الذين احتلوا أراضيهم ومدنهم . وهو ما مكن لهم بين هؤلاء الرعايا ، فكانوا يحمون حياتهم وأملاكهم وأديانهم طالما يقبلون الحكم الإسلام ويدفعون الجزية . هذا في مقابل الإعفاء من الجندية . حقيقة أن قلة من مسيحي البلقان قد تحولوا إلى الإسلام فيما بعد لضمان المزايا التي يوفرها لهم ذلك أو لأنهم كانوا أبناء أقليات دينيه تعرضت للاضطهاد في ظل الحكم المسيحي ووجدت في الحكم العثماني خلاصا من الظلم إلا أن العثمانيين لم يبذلوا جهدا كبيرا لفرض التحول إلى الإسلام خاصة وأن محافظة الزمي على دينه كانت تكفل تحصيل الجزية التي كان توفر للخزانة العامة دخلا رئيسيا ولم يكن إعفاؤهم من الجزية هو العامل الوحيد الذي جعل أعدادا كبيرة منهم تدخل في الإسلام بل تلك الصفات الطيبة التي تمتع القائمون على السلطة فى النواحي الاجتماعية والأخلاقية وتمسكهم بدين وذلك الاحترام الذي كان يلقاه العلماء ورجال الدين من الرعية وخدمتهم للعلم.

ومن جانب آخر فان المسيحيين كانوا على علاقة وصله ومعرفة بالمسلمين لمدة طويلة وهذا ما سهل قبولهم دخول الإسلام خاصة انهم كانوا بعيدين عن تأثير القسطنطينية السلطوي بينما كان يعجبهم في الأتراك عدم التعصب الديني وهذا ما أكدته أحداث الفتح العثماني في منطقة بثينيا إذ تحولت عام ١٣٣٣م مدن بولو وبورصة وأزميت وكلها مدن مسيحية الى مدن عثمانية بطوع أهلها وكانت عدالة سليمان بك أورخان التي ذاعت في كل مكان قد جعلت الأهالي في بعض المدن يعرضون انقيادهم له .

ولم يحاول أورخان فرض الإسلام على المسيحيين بل أغراهم بقانون يعطي امتيازا أو مكافأة على الخدمة العسكرية والتي كانت أصلا مقتصرة على المسلمين ومن هذه المكافأة توزيع الأراضي التي جرى احتلالها على المحاربين المخلصين وذلك على شكل إقطاعات وقد أعزى هذا المسيحيين على الإسلام والتمتع بالأراضي، كما أن الدخول في الإسلام كان يحمى الأطفال المسيحيين من الخدمة كانكشارية أو من التحول إلى عبيد يباعون في الأسواق إذا كانوا من أسرى الحرب وكانت هذه المزايا الأخيرة مجدية بين مسيحي البلقان كما أن زواج الجنود العثمانيين من نساء البلاد المفتوحة وخاصة من أرامل جنودها قد فتح الباب لدخول جنسيات كثيرة في الجنس العثماني بفضل إسلامهم فلقد كان كل ذمى يدخل في الإسلام يصبح عثمانيا انت ويملك كل حقوق المواطن العثماني المسلم.

وبهذا يتضح لنا أن العثمانيين سواء كانوا اعتنقوا الإسلام قبل مجيئهم إلى الأناضول أو بعد استقرارهم فيه فان اعتناقهم الإسلام قد خلق لهم قضيه يحاربون من أجلها وهي قضية الجهاد في سبيل الله ضد البيزنطيين وهو ما مهد لفتحهم المدينة تلو الأخرى وبالتالي توسيع رقعة دولتهم في إطار السعي لأجل هذه القضية ثم كان تسامحهم الديني مع سكان البلاد المفتوحة عامل أكثر أهمية فى توسعهم حيث كان تسامحهم الديني عامل جذب لسكان المدن المنطوي في إطار دولتهم لكى يعتنقوا الإسلام ، وبالتالي يصبحون عثمانيين منتمين للبيت العثماني ، والنتيجة وخطيرا – ازدياد عددهم وتمكنهم من تطوير فتوحاتهم ، وبالتالي اتساع رقعة دولتهم.

ثالثًا: العامل العسكري

كان الجيش العثماني في البداية يعتمد على الفرسان الذين كانت خيولهم مصدر قوتهم ورفيقهم الدائم ، وكانوا برعين وجريئين إلى حد التهور ، وأثبتوا تفوقهم على القوات البيزنطية ، وقد اتبع العثمانيون في البداية أسلوب قتال مكنهم من إحراز هذا التفوق ، فلم يكن العثمانيون يفتحون المدن عنوة أو قهرا بل كانوا يتبعون طريقة الحصار لزمن طويل – استمر حصار مدينة بورصة مدة عشر سنوات كاملة – والتي سهلت عليهم إحراز النصر خلال المرحلة الأولى من بدايتـم وهى مرحلة الانتقال من البداوة إلى الحضارة حيث لم يكن العثمانيون في حاجة لزمن طويل للاستعداد لهجومهم ، ولذلك كان من الصعب على العدو تحديد الوقت الذي يقوم العثمانيون فيه بالهجوم ، وكذلك تحديد الجهة التي يهاجمونها كما أنهم تعودوا على الإغارة والرحيل والتخلص من الحمل الثقيل الذي يعوق الكر والفر فإذا انتصروا كسبوا ما غنموا ، وإذا خسروا فإنهم لم يخسروا شيئا لأنهم لا يملكون شيئا . .

وإزاء توسع الإمارات العثمانية ، والحاجة إلى المشاة بجانب الفرسان ، تم تشكيل فرق المشاة من المسلمين الأتراك الذين كانوا يأخذون أجرا أيام الحرب ويعفون من ضريبة الزراعة عند عودتهم إلى أراضيهم ، ولكن هؤلاء المشاة الذين كانوا يدعون " اليايا" قد خضعوا إلى الطاعة العمياء في الجيش ، كما أخذوا يرددون إلى متى يبقون مشاة ، وعندها اخذوا يتمردون ، ولما كان القضاء عليهم يشكل أمرا خطيرا ونقصا في عدد الأتراك المسلمين ، هذا في الوقت الذي كانت قد توسعت فيه الفتوحات العثمانية في الأرض البيزنطية.

لذلك لجأ أورخان إلى طريقة أخرى لزيادة عدد الجيش العثماني ، وهي تشكيل قوات جديدة مؤلفة من أولاد المسيحيين ، وهم الذين يرتبطون بالسلطان ويربون تربية إسلامية ، وكان " قرة خليل جندرلى " قاضي العسكر لدى أورخان – الذي صار فيما بعد وزيرا أولا باسم " خير الدين باشا" هو الذي أشار بأخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم و تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أيا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبـهم معهم فأعجب أورخان هذا الرأي ، وأمر بإنقاذه ، ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل صار بهم إلى الحاج "بكتاشي " شيخ الطريقة البكتاشية بمنطقة " أماسية " ليدعوا لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ

بالنصر على الأعداء ، وقال فليكن أسمهم " يني تشارى " ويرسم بالتركية هكذا " يكيجاري " أي الجيش الجديد ، ثم حرف في اللغة العربية فصار " انكشارى ".

وعلى الرغم من العرض السابق والذي يقول بأن أورخان هو الذي بدأ إنشاء الجيش الإنكشاري ، فإن المصادر اختلفت فيما بينها حول تاريخ تأسيس هذا الجيش فالبعض أرجعه إلى عهد أورخان عام ١٣٣٠ م ، والبعض الآخر أرجعه إلى بداية حكم أبنه مراد فيما بين عامي ١٣٦٠ و ١٣٦٥ م . ومع ذلك فإن هذا الجيش تشكل من خلال ما عرف بضريبة الدم الدفشرمة وكلمة "دفشرمة مأخوذة من الفعل " دفشيرمك " في اللغة التركية وهو يعنى تسجيل الأسماء ، وطبقا للأسلوب الذي كان يتم به اختيار الأطفال وتجميعهم من أسرهم ، فإن نظام الدفشرمة كان عبارة عن تجميع أولئك الأطفال كضريبة رأس فرضها السلاطين على الأسر المسيحية التي لم تعتنق الإسلام . وكان يجمع الأولاد الذكور الأقوياء والأصحاء ما بير أعمار ٨ ، ١٥ عاما إلى ١٨ ، ٢٠ عاما على الأكثر كل فترة ٣ أو ٥ سنوات وفى البداية كانت أعداد هذا الجيش الإنكشاري قليلة فهي لم تتجاوز في عهد بايزيد الأول ١٠٠٠ مقاتل ، أما عندما دخل أولاد المسلمين بناء على طلبهم هذا الجيش فقد زاد عدده إلى أن وصل في عهد السلطان محمود الثاني إلى ما تعداده ١٤٠ ألف مقاتل ، ورغم صرامة هذا النظام فقد كان الباب مفتوحا أمام الكفايات للترقى إلى أرفع المناصب ، هذا فضلا عن تغيير بعض أسسه ، فبعد أن كان يحرم على الجند عاد الإنكشارية الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية ، ما لبثوا أن سمح لهم بذلك وبإدخال أبنائهم إلى الوجاق أي الفرق العسكرية الانكشارية ، وقد ألغى نظام الدفشرمة في عام ١٦٧٦ م.

وإلى جانب المشاة والإنكشارية كان الجيش العثماني يضم قوة من المشاة غير النظاميين الذين كانوا يقومون بالمناوشة وتلقى الصدمة الأولى قيل ان تقوم القوات النظامية بشن الهجوم . كما كانت توجد ست فرق من حرس الخيالة الذين وصل عددهم في البداية إلى ٢٤٠٠ ، ثم ازداد فيما بعد إلى درجة كبيرة ، وطبق النظام الاقطاعي على الخيالة ، فكان بعضهم يمنحون أرضا يشغلونها بشرط أن يؤدي الخدمة العسكرية . وبالإضافة إلى هذه التنظيمات العسكرية وجدت فرقة من الفرسان غير النظاميين الذين أطلق عليهم أسم " إيكنجي " أو المهاجمين الذين لم يكونوا يتلقون أجورا ويعتمدون في إقامة أودهم على السلب والغنائم.

وعلى أية حال ، فقد تمكن أورخان بهذا التشكيل العسكري من الحصول دائما على مدد لا ينضب من الفرسان والمشاة ، والذي مكنة من الفتح وتوسيع الدولة العثمانية على حساب البيزنطيين على وجه الخصوص.

رابعًا: العامل السياسي

يتركز العامل السياسي في حالة الضعف التي وصلت إليها الدولة البيزنطية ، والتي كانت عاملا قويا مكن وسهل الفتح علي العثمانيين ، وكان الصراع الطويل ما بين الإمارات التركية والإمبراطورية البيزنطية قد أضعف الطرفين . ولو كانت هذه الإمارات متحدة لتمكنت من احتلال القسطنطينية بعد ما اجتازت قواتها منطقة تراقيا وبعد فشل أندرونيكوس الثاني الإمبراطور البيزنطي من صدها بعد تمرد الجنود السلاف ، ولدي شعوره بخطر المسلمين اخذ يبحث عن حليف ، فاتصل بالمغول عارضا علي غازان قائدهم المصاهرة ولكن هذه المحاولة فشلت إذ كان المغول قد دخلوا الإسلام ، واتصل بملوك أوروبا ، فأرسل له فرديناند صاحب أراغون قوة في عام ١٣٠٢ م ، والتي كانت عناصر مشاغبة في جيشه فأراد التخلص منها ، واستغل فرصة طلب المساعدة من إمبراطور بيزنطة فرماه بهم.

وبالفعل سرعان ما اشتبكت هذه الوحدات في حروب أهلية مع الوحدات اليونانية والجنوبية ، وعاثوا في الإمبراطورية فسادا ، وفل أندرونيكوس في إرسالهم إلى آسيا الصغرى لإنقاذ أملاك الإمبراطورية هناك ، وكان كل ما فعلته هذه العناصر الأسبانية هو زيادة حالة الإمبراطورية ضعفا علي ضعفها ، وشغلها بحروب أهلية متواصلة كانت دون شك من أهم العوامل التي شغلت الأباطرة عن توجيه همهم نحو أملاكهم في آسيا الصغري التي بدأت تسقط في أيدي العثمانيين ، ففي عام ١٣٠٨ م سقطت " عك حصار " في يد العثمانيين ، وهي قلعة تحرس البقعة التي ينتهي عندها انحدار نهر سنجاريوس ليدخل في الوادي وراء مدينة نيقوميديا وكانت " عك حصار " آخر حاجز أمام تقدم العثمانيين في شبة الجزيرة الضيقة التي تمتد بين نيقوميديا والبحر الأسود والتي تكون الركن الشمالي الغربي الصغري وبهذا أطل العثمانيون على البسفور.

والحقيقة أن سقوط مدينة " بورصة في يد العثمانيين يظهر مدي حال الضعف التي وصلت إليها الإمبراطورية البيزنطية ، فمن الثابت أن "بورصة لم تشهد قتالا خارج أسوارها ،

إنما أخليت للعثمانيين إخلاء ، فالقائد اليوناني كان قد أضعف من عزيمته عجز أو عدم رغبة الأباطرة البيزنطيين لمساعدته فسلم المدينة . بل بلغ استياؤه من وقف الأباطرة وما آل إليه الحال من ضعف الروح المعنوية في الإمبراطورية أن انقلب هو نفسه مسلما وسلم ثروته للعثمانيين ، وتبعه في ذلك عدد كبير من زعماء اليونان في بورصة . إذ بينما كان أهل " بورصة " يحاولون الدفاع عن مدينتهم كان أندرونيكوس العجوز بعد وفاة أندرونيكوس الثاني ينازع حفيد أندرونيكوس الثالث الملك في حرب أهلية عنيفة ، ويضعان مستقبل الإمبراطورية في آسيا الصغرى في يد القدر دون أن يظهر أحدهما أي شعور بالوطنية أو الكرامة الشخصية.

وفي هذا الإطار ، لم يتخذ احتلال العثمانيين لمنطقة آسيا الصغرى شكل حرب عنيفة في سبيل البقاء بل كان تسليما على طول الخط من جانب كان قد أصابه التفكك السياسي والاجتماعي ، فلقد فقدت الكنيسة سيطرتها على العالم المسيحي الشرقي ، ولم ينجح فيما نجحت فيه المسيحية الغربية من ابتلاع العناصر الوثنية القادمة من آسيا والتي نزلت في أوروبا ، بل حتي لم تستطع أن تحافظ علي تماسك العناصر المسيحية التي كانت خاضعة لها ، فأواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر هي الفترة التي كان فيها العالم المسيحي الشرقي في أشد الحاجة إلى الإصلاح الديني ، ولكن هذه الفترة جاءت وذهبت وراءها فترات أخري من غير أن يشهد العالم المسيحي الشرقي رجلا مثل " سافونا رولا " أو " مارتن لوثر أو غيرهم من المصلحين.

وفي هذا الإطار أيضا يظهر بوضوح ذلك الصراع فيما بين الكنيسة الشرقية والغربية عامل قوى في ضعف الإمبراطورية البيزنطية وعدم مقدرتها التصدى للدولة العثمانية التي تحتل أراضيها ، وذلك لأن الثقة كانت مفقودة بين الكنيستين ، وخاصة من جانب الشرقيين الذين كانوا يرون أن أي مساعدة من الكنيسة الغربية لهم انما يعنى نية مبيته من جانب الكنيسة الغربية للسيطرة على الكنيسة الشرقية إخضاعها ، لذلك كانت الرغبة في طلب المساعدة من الغربيين يشوبها محاذير عديدة ، فكان ذلك عامل توقيف لأي طلب من جانب البيزنطيين من الغرب المسيحي هو ما أدى إلى تمكن العثمانية من البيزنطيين دون مساعدة الغرب.

والشيء اللافت للنظر أن استيلاء العثمانيين علي مدن بيزنطية مثل بورصة " و " نيقية " و " نيقو ميديا " ، لم يكن نتيجة تفوق حربي من جانب بل كا سكا العثمانيين ، ولم يكن نتيجة

فتح عنوة ، بل كان مجرد تسليم من جانب البيزنطيين ، ولم يكن هذا التسليم إلا نتيجة لإحساس سكان هذه المدن بأن الهيئة الحاكمة في القسطنطينية لم تعد تهتم ببذل المساعدة لسكان هذه المدن ، فكان من الطبيعي أن يستسلم أهلها وأن ينخرطوا في سلك العثمانيين . فبينما كان العثمانيون يوجهون همهم لاحتلال هذه المدن كان الخلاف علي أشده بين أندرونيكوس الجد وأندرونيكوس الحفيد . والذي انتهي لصالح الحفيد ، والشيء الأشد خطورة من ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه أندرونيكوس الحفيد يقاتل العثمانيين في موقعة بليكانون " عمد جده والذي كان في الأسر إلى أن ينشر الإشاعات عن هزيمة غير حقيقية في جانب البيزنطيين ففى هذا في عضد محاربيهم ، والذي ساعد في ترويجها ، ما كان من هروب اندرونيكوس الحفيد علي اثر جرح بسيط من أرض المعركة وبالتالي هزيمة البيزنطيين.

من هنا يمكن القول أن أورخان حينما استعد لمد أملاكه في أوروبا لم تكن الدولة البيزنطية هي مركز المقاومة ، إنما كان منافسه الحقيقي هو " ستيفان دوشان " حاكم الصرب ، والذي كان يتطلع إلى العرش الإمبراطورى في القسطنطينية ولو تمكن ستيفان بمساعدة البنادقة قبل عام ١٣٥٠ م من احتلال القسطنطينية لضاعت الفرصة على العثمانيين إلى الأبد ، ولكن البندقية اعتذرت ف عام ١٣٤٧ م عن مساعدته بدعوى أنها كانت في هدنه مع الأباطرة البيزنطيين ورغم ذلك فقد ظل يلح في طلبه منها حتى عام ١٣٥٠ م عندما فقد الأمل نهائيا في إقناع البنادقة بالعدول عن موقفهم من الدولة البيزنطية ، وعندها رأي "ستيفان دوشان" التحالف مع العثمانيين احتلال القسطنطينية ، وقد راسل أورخان في ذلك ، والذي أرسل وفادته إليه ، فعلم بها البيزنطيون وهو ما ساعدهم على الإيقاع بسفارة أورخان ، وبذلك قضي علي كل تعاون بين " دوشان و " أورخان " لأجل القضاء علي الإمبراطورية البيزنطية ، ليكون القضاء عليها من نصيب العثمانيين وحدهم خاصة بعد وفاة " دوشان " قبل تحقيق حلمه.

وأما في القسطنطينية فقد انتهي أمر " أندونيكوس" با نخراط في سلك الرهبنة ، تاركا لمستشاره " يوحنا كانتاكوزين " نيابة الملك ، وسرعان ما توفي أندرونيكوس ، وتوج " كانتا كوزين " نفسه إمبراطورا في " ديموتيكا " ولكن القسطنطينية رفضت ذلك ، وحدث على إثر ذلك حرب أهلية في الإمبراطورية فيما بين " كانتا كوزين ، ومنافسة على العرش " باليولوجوس " ، حيث طلب الأول مساعدة أورخان مقابل تزويجه ابنته " تيودورا " ، وحدث ذلك بالفعل وانتهت

الحرب إلى أن تولى عرش الإمبراطورية كل من الإمبراطور كانتا كوزين الإمبراطور " باليوجوسي " وقد أسعد هذا أورخان بالطبع فلقد أصبح زوجا لإبنه مبراطور هو كانت كوزين ، وعديلا لإمبراطور آخر ، وعلاوة على ذلك كانت زوجته تيودورا حفيدة لقيصر البلغار .

ومع ذلك فسرعان ما أحس " كانتا كوزين " بخطر العثمانيين ، لذلك عمد إلى مراسلة البابا كلمنت لأجل توحيد ملوك أوروبا لحملة صليبية ضد العثمانيين ، إلا أن دعوته هذه لم تأت بثمارها خاصة بعد ظهور وباء في بحر أيوكسين بأوروبا ، وهو ما أدي إلي انشغال أوروبا عما يصيب الإمبراطورية البيزنطية من تدهور واضمحلال ، وكذلك قطع خطوط المواصلات بين الغرب والحوض الشرقي للبحر المتوسط ، ولم تعد المواصلات إلى حالتها الطبيعية إلا بعد أن كان أورخان قد ثبت أقدام دولته في مقدونيا وتراقيا ،وبذلك يمكن القول بأن أهم نتائج هذا الوباء القضاء على احتمالية خروج حملة صليبية من الغرب لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية.

وإذا ما كان هذا الوباء قد شغل أوروبا عن إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من خطر تقدم العثمانيين ، فإن الصراع المسلح الذي حدث فيما بين جنوه والبندقية كان عاملا مساعدا في زيادة خطرهم عليها ، خاصة بعد أن طلبت جنوة النجدة من أورخان في حربها ضد البندقية ، والتي لم تغير من نتيجة الحرب التي انتهت لصالح البندقية في عام ١٣٥٣ م ، ومع ذلك فقد كان الاستنجاد بالعثمانيين من جانب جنوة اعتراف من القوي السياسية في الجنوب الشرقي لأوروبا بالدولة العثمانية كقوة تستطيع التدخل في المشاكل الأوربية وتلعب دورا في توازن القوي هناك . والحقيقة أن اختصام هاتين الدولتين في وقت كانت فيه الإمبراطورية البيزنطية تترنح قد زاد هذه الإمبراطورية ضعفا علي ضعفها في مواجهة العثمانيين ، والذين كانوا يج السعي نحو أملاك البيزنطيين.

وجاء النزاع فيما بين كانتا كوزين وباليولوجوس علي عرش بيزنطة ليزيد من حالة الضعف فيها ، ويمهد للعثمانيين الاستيلاء على أراضيها ، خاصة بعد أن طلب كانتاكوزين النجدة من أورخان حيث كان انتصاره على باليولوجوس ثمرة لي المساعدة وبذا أصبح الحاكم الوحيد لبيزنطة ، ولكنه في نشوة الفرح نسي أنه كان بمثابة المضيف، الذي دعي العثمانيين إلى أوروبا ليشاهدوا وديان تراقيا ومقدونيا الخصبة ، وأنه أصبح من المتعذر عليه إخراج هؤلاء الضيوف من بلاده ، والحاصل أن العثمانيين كانوا قد احتلوا القلعة التي وعدهم بها كانتاكوزين

في تراقيا نظر المعاونة له ، علي أنه وقع عقب هذا مباشرة زلزال أتلف جزءا من أسوار مدينة غاليبولي ، فانتهز سليمان بن أورخان الفرصة وأسرع باحتلالها .

وقد كان من نتيجة احتلال أورخان لهذه المنطقة أن بدأ الناس في القسطنطينية يلقون تبعه هذا على سياسة كانتا كوزين الذي بدأ بتسليم أرض إلى المسلمين العثمانيين ، وزاد في حرجه أن بطريرك القسطنطينية أثار مسألة الإمبراطور أملاك الكنيسة لإرضاء أورخان ، لذلك أحس كانتاكوزين بالحرج فعرض علي أورخان تسليم القلعة في تراقيا نظير عشرة آلاف دينار وسحب جيوشه من غاليبولي ، وقد رضي أورخان بتسليم القلعة لأنه كان يعلم جيدا أن في إمكان استرجاعها في أي وقت ، أما فيما يتعلق بغاليبولي فقد أجاب أورخان بأنه لا يستطيع أن يسلم أرضا قد فتحها الله عليهم ، بذلك أصبح واضحا أمام كانتاكوزين أنه لا يستطيع أن يسترد أملاكه من أورخان إلا بالقوة فأرسل إلى الصرب والبلغار يطلب منهم المساعدة ، إلا أن طلبه قوبل بالرفض ، وكان لهذا الرفض أثره في حرج موقف كانتا كوزين أمام الشعب البيزنطي ، والذي نادي بتولي " باليولوجوسى العرش ، وبالفعل انتهت ثورة القسطنطينية عام ١٣٥٨ م بتنازل " كانتا كوزين" عن العرش وتولي " باليولوجوسي"" مكانه . ومع ذلك فإن مجيء باليولوجوس لم يؤد إلي تغيير في وضع العثمانيين في تراقيا وحول بحر مرمرة ، إذ سرعان ما وجد الإمبراطور الجديد نفسه تحت رحمة أورخان ، حيث وصل به الأمر إلى أن يعقد مع أورخان معاهدة أساسها الاعتراف بمركز العثمانيين في تراقيا ، واشترط أورخان أن يزوج " باليولوجوس " ابنته البالغة عشر سنوات لخليل أبنه . وعلي أية حال ، لم يتقرر في هذا الاحتفال الرائع مصير تلك الفتاة الصغيرة السن فحسب ، بل كذلك مصير الإمبراطورية البيزنطية كلها . فإذا ما كان " كانت كوزين " قد استدعي العثمانيين إلى أوروبا فإن " باليولوجوس " قد قبل بقاءهم هناك دون أية مقاومة .

وبذلك يتضح لنا أن تطور الإمارة العثمانية إلى مرحلة الدولة يرجع في كثير منه إلى عامل سياسي مهم ، وهو حالة الضعف التي انتابت الإمبراطورية البيزنطية ذلك الوقت ، والتي ترجع في كثير منها إلى الصراع الدائم علي العرش في الإمبراطورية ، والذي وصل إلي حد الاستنجاد بالعثمانيين في هذا الصراع ، كما يرجع إلى انشغال أوروبا عما يحدث لبيزنطة من جانب العثمانيين وعدم تنبههم إلى ذلك الخطر الجديد ، هذا فضلا عن ذلك الصراع الذي كان

يجمع بين الكنيسة الغربية الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والكره المتبادل بينهما كان أكثر من كرههما للعثمانيين . كل هذا كان قد أدي إلي ضعف الدولة البيزنطية ، وهو ما مهد للعثمانيين استغلال هذه الحالة لتوسيع رقعة أراضيهم على حسابها .

خامسًا :عامل الإدارة .

كانت الدولة في الإمارات التركية بالأناضول خاصة الساحلية منها ملكا عاماً لكل أفراد الأسرة ، يحكم كل أمير منطقته حكما مستقلا ، ولئن كان لأكبر أفراد العائلة من الناحية النظرية حق الرياسة على الآخرين ، إلا أنه لم يكن يزاول ذلك الحق إلا إن كان أقواهم فعلا ، فبينما كان محمد بن آيدين يحكم " بيركي " ومعه ولده الصغير كان أبناؤه الآخرون حكاما على مناطق أخرى ، وكان لكل منهم جيشه الخاص . وأما " أمور بك ، فقد تحرك لغزو غاليبولي في أول مرة رغم إرادة أبيه ، ولما مات أبوه ولي عرش إمارة جاندار مع أن له أخا أكبر . ولقد كانت هذه الأوضاع تسبب كثيرا من الخصومات في إمارات الساحل وتؤدي إلى ضعفها .

وأما السلطة عند العثمانيين فقد كانت كلها في قبضة شخص واحد وهو ما أدي إلي عدم تعرض الدولة العثمانية إلى أزمات داخلية شديدة طيلة القرن الرابع عشر ، والذي يرجع في كثير منه إلى عدم انقسام السلطة فيها ، فلقد أوصى عثمان بإمرة العثمانيين إلي ابنه أورخان ، لشجاعته وإقدامه وعلو همته في قيادة الحرب والفتح ، وهذا ما كان يرضي ويناسب فرسان " القايي " كنوع من الانتخاب القبلي للزعيم ، وحدث أن القبيلة هي التي فضلت عثمان على أخيه " دوندار " الذي أرادت بعض العشائر توليته ، ولم يوص عثمان لابنه البكر علاء الدين بالولاية بعده لميله إلي الورع والعزلة ، فعهد بها إلي ابنه أورخان ، ولكن علاء الدين لعب دورا مهما في تنظيم الدولة إذ عينه أخوه وزيرا بما أصبح يعرف بالصدر الأعظم وأقدم على معالجة مسألة العملة واللباس والجيش.

فقد ضرب علاء الدين النقود باسم أخيه أورخان من الذهب والفضة ، وكا هذا دليل استقلال الإمارة العثمانية في حياة الدولة السلجوقية ، وأطلق على العملة اسم " الآقجة " ، وقد حملت علي وجهها كلمة الشهادة وعلي الوجه الثاني اسم أورخان وخلد الله ملكه ، وميز علاء الدين الجند عن الرعية بألوان القلانس وكانت الحمر والصفر والسود ، وخص خدمه بالبيض ، والأعيان والأتباع بالحمر.

وتم تنظيم الدولة إداريا فقسمت إلي سناجق ، وجعل أورخان " بورصة" عاصمة له كما جعلها مركزا لسنجق جديد أقطع لولي العهد مراد ، ثم أنشا سنجقين آخرين للمنطقة الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية . وانشأ اورخان في عاصمته "بورصة " المنشآت الرائعة الفخمة ، وكان مسجدها في الصحن و الأروقة والقباب أقدم جامع فيها ، وأنشأ أول جامعة عثمانية في أزميد وعهد بإدارتها إلي " داود القيصري" العالم بالعلوم الدينية والعقلية ، كما أسس فيها المدارس والتكايا للفقراء وانتشرت العمارات والمساجد والمدارس في كل مكان ، و اكرم اورخان العلماء والشعراء .

وعلى أية حال ، فإن انتماء الإدارة العثمانية في بداية نشأة الدولة العثمانية إلى أصول عسكرية قد أضفى عليها تماسكا ونظاما كان لهما فضل في تطور الإمارة العثمانية ووصولها إلى مرحلة الدولة .

وهكذا يتضح لنا أن الدولة العثمانية ليست كيانا مستقلا ، ولا هي تشكيل اثنوغرافي أو سياسي مستقل عن الدولة السلجوقية المنقرضة وعن الإمارات التي خلفتها ، وإنما هي بالعكس تركيب من العناصر التركية تمخض عنه التطور السياسي والاجتماعي في الأناضول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهذه العناصر التركية هي التي أسست من قبل دولة السلاجقة ودولة الدانشمنديين وإمارات الأناضول المختلفة . وعلى أية حال فإن كانت الإمارات التركية التي قامت في الأناضول قد سقطت ، فإنه كتب للإمارة العثمانية التي أنشأها أرطغرل بن سليمان الاستمرار ، والتحول من مرحلة الإمارة إلى مرحلة الدولة على عهدي عثمان وأورخان.

الفصل الثاني

توسعات الامبراطورية العثمانية

أولا: عهد مراد الأول ١٣٦٠- ١٣٨٩م

ثانيا: عهد بايزيد الأول ١٣٨٩- ١٤٠٢م

ثالثًا: الامبراطورية العثمانية عقب هزيمة انقرة ١٤٠٢- ١٤٥١م

رابعًا: محمد الثاني وفتح القسطنطينية ١٤٥١- ١٤٨١م

أولا: مراد الأول ١٣٦٠- ١٣٨٩م

سار مراد الأول على نهج أبيه أورخان في سياسته الداخلية والخارجية، وافتتح ولايته بضم مدينة أدرنه Adrianople عام ١٣٦٠م، وهي أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فاتخذها عاصمة له في الجانب الأوربي وقاعدة لعملياته الحربية في البلقان، نظراً لقوة حصونها ومناعتها وقربها من مسرح العمليات، فكان لهذه النقلة أثرها الكبير في حياة الدولة العثمانية، فظلت أدرنه عاصمة للعثمانيين حتى فتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وشهدت المدينة في عهد مراد تطوراً عمرانياً وثقافياً كبيراً، فانتقل إليها موظفو الإدارة والقضاء والعلماء والفقهاء، وأقيمت فيها المحاكم وشيدت المدارس والمساجد والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية.

احتشد تحالف صليبي من ستين ألف جندي لمهاجمة العثمانيين فتصدى لهم القائد العثماني لالا شاهين بالقرب من (تشيرمن) على نهر مارتيز فهزمهم وفر قادة جيش التحالف من بينهم أميران صربيان لقيا حتفهما في نهر مارتيز. استأنف مراد ابن أورخان سياسة التوسع في البلقان بعد إطلاق سراح أخيه خليل سنة ١٣٥٩م، فاستولى على القلاع الواقعة على وادي ماريتسا وكل القلاع الواقعة على الطريق بين أدرن عاصمة تراس والقسطنطينية، فقطع خط الإمدادات عن القسطنطينية، واستولى على أدرن عام ١٣٦١م." تجنب مراد القسطنطينية في غزواته لكنه، حاول تطويقها بفتوحاته من الشمال، ليعزلها عن باقي أوربا، لكنه واجه تحالفاً بلقانياً من البلغار والصرب، فزحف مراد على ملك الصرب لازار Lazare والحق به هزيمة نكراء في يونيو من عام ١٣٨٩م، على أرض كوسوفو Kossovo وتعني أرض الطيور السوداء وعلى الرغم من استشهاد مراد الأول نفسه في ميدان المعركة وهو يتفقد القتلى والجرحى، على يد جندي صربي ادعى أنه يريد أن يعلن إسلامه على يد السلطان فأمنه فطعنه الجندي بخنجر مسموم، على الرغم من ذلك قضت هذه المعركة على التحالف الصربي فلم يقم للصرب قائمة حتى القرن التاسع عشر.

تابع العثمانيون غزواتهم في البلقان في ثلاثة خطوط سار الخط الأول في اتجاه الغرب حتى وصلوا في عام ١٣٨٥م إلى الساحل الألباني وقبل الحكام المحليون في مقدونيا وألبانيا السيادة العثمانية. بينما انطلق الخط الثاني من ميناء سالونيك إلى تسالي وتم في عام ١٣٨٧م، بينما امتد الخط الثالث من القسطنطينية إلى بلجراد، وتم استكمال هذا الخط في عهد بايزيد عام

١٣٩٥م بسقوط وادي ماريتسا في يد العثمانيين، ودخل العثمانيون وادي مورافا عن طريق صوفيا ونيش، وفي العام التالي غدت مملكة صربيا ولاية تابعة للعثمانيين.

ثانيا: بايزيد الأول ١٣٨٩- ١٤٠٢م

خلف بايزيد والده مراد بعد استشهاده في ساحة القتال، وظهرت براعة بايزيد في سرعة الانتقال بين ميادين الحرب في الجانبين **الأوربي** والآسيوي، لذا أطلق عليه لقب (يلدرم) وتعني الصاعقة. حاول البلقانيون توجيه ضربة للسلطان الجديد علها تكون القاضية، فاجتمعت القوات المتحالفة بدعوة من البابا يونيفاس التاسع من ١٢٠،٠٠٠ مقاتل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر والصرب وتقدمت القوات المتحالفة إلى نيقوبوليس Nicopolis على نهر الدانوب، وألحقوا بالقوات العثمانية هزيمة في البداية، لكن دارت الدائرة عليهم وانتصر بايزيد الأول الذي ظهر فجأة في حومة الوغى، وتمكن من قهر أعدائه وأسر معظم قادتهم، ثم عفا عنهم مقابل الفدية، في معركة أطلق عليها المسلمون صليبية نيقوبوليس ١٣٩٦م، فكانت هذه هي آخر معارك التحالف العثمانيين في عهد بايزيد، الذي هادن الصرب ليتفرغ للإمارات مع السلجوقية في آسيا الصغرى، ووافق على تعيين ابنا الملك لازار على عرش صربيا مناصفة وتزوج من شقيقتهما، على أن يدينان له بالولاء ويدفعان له الجزية ويمدانه بفرقة من الجنود في حالة الحرب. ثم وجه بايزيد ضربة خاطفة لبلغاريا فأخضعها لسلطانه الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الأوروبيين، وذلك قبل أن ينتقل إلى آسيا الصغرى ويضم الإمارات الإسلامية السلجوقية لملكه، ولم ينس بايزيد أن يعاقب المتعاونين مع التحالف الصليبي في معركة نيقوبوليس، فعاقب شبه جزيرة المورة لتقديمها مساعدة لأعدائه، وعاقب إمبراطور القسطنطينية فضرب حصاراً حول المدينة، لكنه اضطر لفك الحصار عندما ظهرت بوادر خطر المغول من الشرق.

وبضم الإمارات إسلامية التي نمت على أنقاض الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى انحرفت الدولة العثمانية عن سياستها التي قامت عليها منذ نعومة أظافرها، ألا وهي الجهاد المقدس لنشر الإسلام، حسب رأي أحد المؤرخين(٢) ومع وجاهة هذا الرأي إلا أننا نلفت الانتباه إلى أن وجود هذه الكيانات السياسية الصغيرة الضعيفة في آسيا الصغرى قد لا يخدم قضية انتشار الإسلام في الشق الأوربي الذي يحتاج إلى قوة أكبر وتضافر الجهود بشكل أعظم، لذا فإن ضمها إلى الدولة الأكبر يسخر إمكاناتها لخدمة القضية بشكل أفضل.

وخلال هذه المرحلة من الوجود العثماني في البلقان احترم العثمانيون نظام الإقطاعيات في المنطقة، فاقروا الأمراء المحليين مقابل اعترافهم بالسيادة العثمانية ودفع جزية سنوية، مع الاحتفاظ بأحد أبناء الأمير التابع في البلاط العثماني، على أن يقوم الأمير بزيارة سنوية للبلاط العثماني يؤكد خلالها ولاءه للسلطان وأن يتبنى سياسة الدولة فيعادي من تعاديه الدولة ويصادق من تصادق، ومن يخالف ذلك تعلن أرضه دار حرب مرة أخرى، قبل أمراء البلقان الواحد تلو الآخر بالسيادة العثمانية، ولم تقم دولة كبرى في أوربا بمواجهة العثمانيين خلال هذه المرحلة على الرغم من دعوة البابالالحملة صليبية تواجه الخطر العثماني. "

محنة الغزو المغولي

وصلت الأنباء من الشرق برغبة تيمورلنك إلخان مغول إيران في السيطرة على آسيا الصغرى وتوسيع ملكه على حساب الدولة العثمانية، على الرغم من اعتناق تيمورلنك الإسلام آنذاك، لكن يبدو أن الرغبة في التوسع أو إخضاع بايزيد لنفوذه كانت أقوى، يزكيها رسل الغرب الأوربي التي حملت وشاية لتيمورلنك بعزم بايزيد على مهاجمة أملاكه، وإغراء تيمورلنك بغزو آسيا الصغرى، لتخليصهم من شبح التهديد العثماني لهم. أرسل تيمورلنك إلى بايزيد معترفاً بجهوده لخدمة الإسلام، لكنه يطالبه بالخضوع له باعتباره ملك الترك الأعظم، فرفض بايزيد وقبل النزال. تقدم تيمورلنك إلى سيواس وأهلك حاميتها التي كان يقودها أرطغرل بن بايزيد، وتقدمت قوات المغول نحو أنقرة، فاشتبكت مع بايزيد في معركة حامية انتهت بهزيمة بايزيد وأسره سنة ١٤٠٢م، وانتهت حياته بشكل غامض، فاعتقد البعض أنه انتحر،(١) وهو أمر صعب أن يقدم عليه حاكم مسلم بهذا الحجم.

ويرجع سبب الهزيمة إلى اندفاع بايزيد في القتال دون روية بعد وصوله من الجانب الأوربي متأخراً، بينما كان تيمورلنك قد أعد خطة محكمة أعاد تيمورلنك الوضع في آسيا الصغرى إلى ما كان عليه قبل السيطرة العثمانية وعاد إلى بلاده وما لبث أن توفي وتفككت دولته. وكتب للهجوم. الله للدولة العثمانية البقاء فقد حفظها وجود أبناء بايزيد في الجانب الأوربي، ولم يتمكن المغول من عبور البسفور والدردنيل لاستكمال مهمتهم لأنهم أمة برية لا خبرة لها بالبحار. أما الأوربيون الذين أطلقوا العنان لأنفسهم ابتهاجاً واحتفالاً بهزيمة بايزيد وموته، فكتب البابا وملوك

فرنسا وانجلترا وقشتالة لتيمورلنك يهنئونه بهذا الانتصار، اعتقاداً منهم أن شبح الخطر العثماني قد زال إلى الأبد، لكنهم لم تكتمل فرحتهم فما هي إلا سنوات قليلة وعاد العثمانيون من جديد.

خلفاء بايزيد والبعث العثماني من جديد

وإذا كان القدر وحده قد حفظ آل عثمان من الهلاك وملكهم من الزوال لأمر قد قدر فإن الصراع بين أبناء بايزيد حول العرش استمر عقداً من الزمان (١٤٠٣- ١٤١٣م) حتى تمكن محمد الأول (١٤١٣- ١٤٢١) من حسم الأمر وتولى العرش. ولم يسجل التاريخ لمحمد الأول سياسية توسعية نشطه، لكنه يكفيه أنه أعاد الأمور إلى نصابها، فأستعاد كثير من ملك آبائه وأجداده المسلوب وقمع الثورات وأعاد الأمن والهدوء إلى البلاد، وأعاد تنظيم الإمارة فهيا الأمر لخلفائه من بعده ليتابعوا سياسة التوسع من جديد، واتخذ من غاليبولي عاصمة غربية وحلت أدرنه محل بروسة عاصمة شرقية ورئيسية للدولة.

وكان السلطان محمد الأول محباً للأدب والفنون وحب الخير، فكان يرسل بصرة إلى أمير مكة لتوزيعها على فقرائها بشكل سنوي، حتى غدت سنة لخلفائه من بعده، وعلى الرغم من موته المبكر عن عمر لم يتجاوز الثانية والأربعين إلا أنه وطد أركان دولته وقضى على الفتن.

ومما لاشك فيه أن الخلاف حول العرش سنة غير صحية جديدة على الدولة العثمانية، لكنها استمرت وسيكون لها عواقب وخيمة في مستقبل الدولة. ويبدو أن وفاة بايزيد فجأة بسبب الغزو المغولي جعله يترك العرش بدون إعداد لمن سيخلفه من أبنائه، فكان الخلاف الذي استمر عقداً كاملاً من الزمان.

ثالثًا: الدولة العثمانية بعد معركة انقرة ١٤٠٢- ١٤٥١م.

قلبت معركة أنقرة ١٤٠٢ موازين القوى في البلقان لصالح البيزنطيين الذين استغلوا الصراع على العرش العثماني، فأرغم الإمبراطور البيزنطي يوحنا السابع الأمير سليمان بن بايزيد على توقيع معاهدة مذلة سنة ١٤٠٣م، مكنت الإمبراطور من العودة إلى القسطنطينية وأعادت له كثير من المدن حول العاصمة، وباستقرار الأمور في الدولة العثمانية شهدت العلاقات العثمانية البيزنطية هدوءاً نسبياً طوال عهد محمد الأول، وزعم أحد الباحثين أن أواصر الصداقة توطدت بين

السلطان العثماني والإمبراطور البيزنطي لدرجة أن السلطان محمد أوصى وهو على فراش الموت بوضع اثنين من أولاده الصغار تحت وصاية الإمبراطور.

ولما تولى السلطان مراد الثاني العرش (١٤٢١- ١٤٥١) طلب منه الإمبراطور تنفيذ وصية والده بإرسال اثنين من إخوته إلى القسطنطينية لكن السلطان مراد رفض تنفيذ الوصية، فأطلق الإمبراطور أحد مدعي العرش وزوده بالسلاح والمال والرجال، غير أن مراد تمكن من القضاء عليه، وبقي الخلاف بينه وبين الإمبراطور مانويل، وحاصر القسطنطينية حتى غدت قاب قوسين أو أدنى من قبضته، غير أن الإمبراطور أشعل الثورة في آسيا الصغرى لتشتيت قوة السلطان العثماني.

توجه السلطان مراد الثاني إلى آسيا الصغرى فخاض حروباً كبرى تمكن من حسمها لصالحه وضم إماراتها فيما عدا إمارة قرة مان، ثم عاد إلى البلقان وأرغم الإمبراطور في عام ١٤٢٤م على توقيع معاهدة جديدة تنازل بمقتضاها عن المكاسب التي حصل عليها عقب معركة أنقره ١٤٠٢م، واستولى على سالونيك في مارس ١٤٣٠م.

وجهت الجيوش العثمانية ضربات موجعة ضد حركات التمرد في شتى أنحاء البلقان فأخضعت ملك الصرب لازار ميتش الذي جدد ولاءه للسلطان مراد، واتجه جيش عثماني نحو اليونان لتوطيد دعائم الحكم هناك، حاول العثمانيون فتح ألبانيا ونجح جيش عثماني في عام ١٤٣١م من فتح جنوب ألبانيا، غير أن الألبان الشماليون بمساعدة قوى أوربية أخرى لاسيما البنادقة تمكنوا من القضاء على حملتين عثمانيتين متتاليتين، وكبدوا العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح عند الانسحاب. ثم اتجه السلطان مراد إلى المجر فالحق بها هزيمة نكراء في عام ١٤٣٨م واستولى على الأفلاق ثم هاجم بلجراد لكنه فشل في دخولها، وواجه مراد حلفاً صليبياً كبيراً دعا إليه البابا، تمكن هذا الحلف من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية وأسر محمود شلبي قائد الجيوش وزوج ابنة السلطان الذي اضطر لقبول صلح في ١٤٤٤م لمدة عشر سنوات، أعاد بمقتضاه الأفلاق للمجر واعترف باستقلال الصرب وافتدى زوج ابنته بمبلغ ستين ألف دوقية.

أنهى مراد الثاني حياته السياسية بنفسه في عام ١٤٤٧م بعد أن أثر حياة الزهد والعزلة إثر فجيعته في موت ابنه الأكبر الأمير علاء فجأة، فتنازل عن العرش لابنه محمد وهو ابن أربعة

عشر عاماً، ثم ذهب إلى مغنيسيا بآسيا الصغرى ليقضي بقية عمره في عزلة وخلوة تفرغ خلالها للعبادة والتأمل(٢) وما أن وصل الخبر إلى أوربا حتى قرر البابا نقض المعاهدة مع الدولة العثمانية على اعتبار أنه لم يباركها وهو ممثل المسيح في الأرض، فتجمعت جيوش أوربا وقررت مهاجمة أملاك الدولة العثمانية في البلقان، فخرج مراد الثاني من خلوته وتوجه على رأس أربعمائة ألف مقاتل إلى البلقان، فالتقى جيش التحالف في سهول قوصوة بالقرب من أدرنه في منتصف أكتوبر ١٤٤٨م في معركة دامت ثلاثة أيام، تمكن خلالها السلطان مراد من هزيمة جيش التحالف وقتل ملك المجر وقطعت رأسه ورفعها الجنود على سن رمح، واكتفى السلطان مراد بهذا الانتصار، وعاد إلى خلوته في مغنيسيا مرة أخرى، لكن سرعان ما ثار الإنكشارية وسببوا فوضى كبرى في البلقان، فقرر السلطان العودة للحكم للمرة الثالثة وبقي في (٣) الحكم هذه المرة لنهاية حياته.

وهكذا نشأت الدولة العثمانية كإمارة من إمارات الحدود الحاجزة بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، واستفادت من ضعف الطرفين وتوسعت في البداية على حساب الجانب البيزنطي ثم على حساب الإمارات الإسلامية في آسيا الصغرى، وفي نهاية هذه المرحلة تعرضت لغزو مغولي كاد يقضي عليها في مهدها، لولا العناية الإلهية التي أنقذت أبناء السلطان بايزيد لوجودهم في الجانب الأوربي إبان الغزو المغولي للدولة العثمانية.

رابعًا: محمد الثاني وفتح القسطنطينية

السلطان محمد الثاني (٨٣١٣هـ/ ١٤٨١م) يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات . حكم ما يقرب من : ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين. تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم

كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف .

وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوافرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الأمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الامبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل إنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادةالجيوش الإسلامية .

أولا : فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام (٣٣٠م) على يد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأول. وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها : « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها ». ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لها وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها، عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك : ما حدث أثناء غزوة الخندق ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ : «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش، لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة ٤٤ هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد

تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبدالملك سنة ٩٨هـ.

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد سنة ١٩٠هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى . كما أن زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥هـ/١٠٦٣ – ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم امبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذ كرد عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٠م) ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقى، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية، وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غرباً وإضعاف الامبراطورية الرومانية .

وفي مطلع القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم (وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد و الصاعقة» الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) ، وأخذ السلطان يفاوض الامبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعبث فسادا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد « الصاعقة » ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة (١٤٠٢م)

، وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين .

وما إن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة (٨٢٤هـ - ٨٦٣هـ/ ١٤٢١م - ١٤٥١م) جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الامبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان ، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على إطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام، ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلاقاها منذ الصغر، بتوجيهات من والده وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور، ومجاهدتهم لأنفسهم، ممن أشرفوا على رعايته.

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني (أحمد ابن إسماعيل الكوراني » وهو مشهود له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان « مراد الثاني» والد « الفاتح » . وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني – الفاتح . أميراً في بلدة « مغنيسيا » وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين ولم يمتثل أمرهم، ولم يقرأ شيئاً حتى أنه لم يختم القرآن الكريم فطلب السلطان المذكور رجلاً له مهابة وحدة فذكروا له المولى « الكوراني » فجعله معلما لولده وأعطاه قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه، فدخل عليه

والقضيب بيده، فقال : أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمرى، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة . منهم هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل ممن كان بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحنى للسلطان ، ويخاطبه باسمه ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح . وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيدا بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين.

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما :

١- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية .

٢- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوى : «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور.

الأسلحة بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأ التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسي أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير. كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله .

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة « روملى حصار » في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر

الآسيوى، وقد حاول الامبراطور البيزنطي إثناء السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقى البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أى سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة .

(أ) اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة :

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى « أوربان » كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

(ب) الاهتمام بالأسطول :

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

(جـ) عقد معاهدات :

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات ، مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي) كما عقد معاهدات . مع « جنوة » و« البندقية» وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلى على

القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية مشاركة لبنى عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الامبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الامبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد ، وقد اضطر الامبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناء على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الامبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: «إننى أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية »

ثانيا : الهجوم :

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلي ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة. كان السلطان

الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها.

وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم ا الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش المفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندى ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدى ما عليه من واجب .

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البرى أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البرى حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشا احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابى، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب ، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولى على جزر الأمراء في بحر مرمرة.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت

أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب .

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها. ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوى جستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستنيان قائداً للقوات المدافعة – عن المدينة وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطى السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى فكانوا يطوفون بشوارع المدينة وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الامبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة "آيا صوفيا" لهذا الهدف.

يرد بالمقابل استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع، وحاول الامبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها ولكن الفاتح رحمها الله طالباً تسليم المدينة تسليماً. وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة : « فليسلم لى امبراطور كم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقى في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً ».

ثالثا : مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدى البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعى، وفي يوم ١٨ أبريل (٤) تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادى ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج استطاعوا جميعاً صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

رابعا : عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح :

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له : « إما أن تستولى على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً»لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول بعدما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف الفاتح قائد الأسطول بالطة أوغلى واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلى لهذا وقال : « إنى استقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمنى أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة،

ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة ». أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا.

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطة أوغلى بأعلى صوته : يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثروا في السفن تأثيراً ليناً .

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثمانى دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، خصوصاً أن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها .

خامسا :عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان محمد الفاتح فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حى . غلطة خوفاً على سفنه من الجنويين، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة لمعركته القادمة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان . فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها . بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم

خفيفة الوزن وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته.

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلت فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم . لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة، ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوافر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط .

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية ، في القرن الذهبي وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال : « ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر» .

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول :« ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع

الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى وقد حاول الامبراطور البيزنطى تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات .

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس .

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً.

سادسا : اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه :

عقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية، ولعله تأتي الجيوش النصرانية فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأى وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبدأ واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها .

سابعاً : الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الأسوار وجعله مركزاً عنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني، وكان

أكثر ما يرعب جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول : (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة.

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البرى في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلو الأخرى، وكان السلطان محمد الفاتح يوالى الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهارا من أجل إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم . أن ينالوا أي قسط راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأي سبب، وأصبح كل واحد من الجنود ينظر إلى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم .

واضطر الامبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثان، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادى ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى العثمانيون .

وكان السلطان محمد الفاتح . يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي أعدت

لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدى إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا .

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع المنطقة الممتدة بين « أكرى فبو » وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون إنما هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون : (هذا تركي، . . . هذا تركي) ويجرون هربا من أشباح يحسبونها إنها تطاردهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعيني رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وما هم بسكارى) فريق يجرى، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع .

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فإن هذه الأنفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين.

مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوى من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الامبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها

عن الأسوار وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت ، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع غداً نصنع أربعاً أخرى.

زاد الحصار وقوى واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً ٢٤ مايو داخل قصر الامبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الامبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع ا المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الامبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات .

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه . ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم فرأوا في ذلك شؤما ونذيرا بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها وحدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشأم البطريق، وذهب إلى الامبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الامبراطور حتى أغمى عليه.

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد.

ثامنا : المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين :

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب إلى الامبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه، وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاءون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الامبراطور جمع ا المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور إلى رأى القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها : « إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها » فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال : « حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر».

وعمد السلطان العثماني بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجرى أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع .

تاسعاً : السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماعا لمجلس الشورى :

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطأة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم وقد قام بعض الحضور بتشجيع

السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى « زوغنوش باشا » وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان.

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت : « ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية : حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع، وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم ال السكون على المجلس لحظة . ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال : إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران . إن جيش الإسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا، فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولى على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما الدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفى الأيدى بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا ؟

يا صاحب السلطنة أما وقد سألتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة يجب أن تكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة، لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا . . . »

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور : إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سلطاني . ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل

الثقة فأجابا أنهما على رأى زوغنوش باشا وقالا : « يجب الاستمرار في الحرب ، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر».

وسرت الحمية والحماس في جميع ا الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول : من كان من أجدادي في مثل قوتى؟. لقد أيد العلماء الرأى القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات . السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك.

عاشرا : محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه :

في يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يده، لعل الله أن ييسر ر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء، كما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد

مؤكداً عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنا لهم الوفاء بعهده معهم، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث . وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون ناراً كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير ، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً مما أوقع الرعب في قلوب الروم، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمى البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقداً وموجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد .

وكان محمد الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى

وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالات عليهم الأعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندى ينصب راية الإسلام على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة . وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية، وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية : « إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون . . . » .

وفي هذا الوقت كان الامبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجو المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الامبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حيث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهداً مؤثراً وند كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد، فقال من حضره « لو أن شخصا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر».

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في إحدى الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو

منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحرى . وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رداً خفيفاً كانما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال : «لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة ».

الحادي عشر: فتح من الله ونصر قريب» :

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفاً عظيماً، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامناً برياً وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادى ليكوس بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة ، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة.

وفي الوقت نفسه أصدر أمراً إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا، في الوقت الذي كان المهاجرون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ

نصيبهم من القتال ، كما كان القتال يجرى على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم، وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم، واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية.

مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتوا في عضد الأعداء، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الامبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فاراً من أرض المعركة، وقد بذل الامبراطور جهوداً كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين .

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة .

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح –

رحمه الله . مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول : «الحمد لله ليرحم ا ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر» الله الشهداء.

كان هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون : ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحى القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى.

الثاني عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين :

توجه محمد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمانتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان ، فاطمان الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

لقد حاول المؤرخ الإنجليزي إدوارد شيبردكريسى في كتابه « تاريخ العثمانيين الأتراك » أن يشوه صورة الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامي المجيد وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حماة الحقد الصليبي ضد الإسلام، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك.

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول : إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام الناس.

أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصاري بسبب دينهم إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على جميع حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها، كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس.

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

الفاتح المعنوى للقسطنطينية الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقى الرومي ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علما من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق . رضى الله عنه – كان مولده في دمشق عام (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في أنقرة وتوفي عام ١٤٥٩ هـ .

درس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات (العربية، والفارسية، والتركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب . وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم .

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوى :

«لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش». وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجهه شيخه فوراً إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ ٥٤ يوماً .

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية، اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له : «إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ . يقصدون آق شمس الدين . فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن أتى عون من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح»

فأرسل السلطان محمد وزيره ولى الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ : (لابد من أن يمن الله بالفتح).

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها : (هو المعز الناصر . . إن حادث . تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هي : إن العبد يدبر والله يقدر والحكم الله . . ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل).

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود . وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال : علمنى يا سيدى دعاء أدعو الله به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاء، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام.

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناء على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل، فإذا شيخه ساجدا لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية ففرح السلطان بذلك وقال : ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمنى.

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه. وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمة المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلا بالقول السائد : (سيد القوم خادمهم) . ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال : يا جنود الإسلام، اعلموا واذكروا أن النبى ﷺ قال في شأنكم : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لا تسرفوا فيما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه . ثم التفت إلى الفاتح وقال : يا سلطانى، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله، ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد.

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا.

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله . بعد الفتح «إنكم تروننني فرحاً. فرحى ليس فقط لفتح. هذه القلعة، إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين» .

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا، قال السلطان الفاتح : «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين احترام غير اختياري إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة »

ذكر صاحب البدر الطالع أن : « ... ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة . أي « آق شمس الدين» – وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له : جئتك

لحاجة . قال : وما هي؟ قال : إن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول : لا . فغضب السلطان وقال : إنه يأتى إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى على . فقال الشيخ : إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان . قال لبعض من معه : ما قام الشيخ لي . فقال له : لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو . . .)

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهوا في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض . وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول : (إن النبات ليحدث آق شمس الدين).

وقال الشوكاني عنه : « ... . وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول : أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله . . ».

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية . واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتزكية بعنوان « مادة الحياة » قال فيه: «من أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى، هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة . لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية » (١) . الخطأ تصور وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد . وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة . واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما : « مادة الحياة»، و« كتاب الطب » وهما باللغة

التركية والعثمانية . وللشيخ باللغة العربية سبع كتب هي : حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجى.

.. وفاته:

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في استنبول ومات عام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان.

وهكذا سنة الله في خلقه لا يخرج قائد رباني، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة، وقد ذكرنا دور عبدالله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية . فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين .

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل. ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطي وبداية العصور الحديثة.

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أي مدينة الإسلام

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزى، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من استنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادى النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات، وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة

عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك . وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م.

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى إلى قتال المسلمين، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين، وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ ما رآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمداً أو يتاخمون حدوده في آماسيا، وبلاد المورة، وطرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقى، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم.

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتى من مقدرة خطابية، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد أنهكت حرب المائة عام إنكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صادقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها، وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والأفلاق والقرم، والجزر الرئيسية في الأرخبيل. وقد تم ذلك في فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم وأخذهم أخذاً عظيماً.

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصراني، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض، وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو أعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة . ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجرى.

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الإسلامي . فنقول : لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا، فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيال، ولقد تطلعت له طويلاً وها قد تحقق وأرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الإسلامي العظيم . وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة.

يقول ابن إياس صاحب كتاب « بدائع الزهور » في هذه الواقعة : (فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح»

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغرى بردى يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهما الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال : « قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة باسطنبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين

شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته شوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل . . . » .

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخرى . وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان ، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته .

.. من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر:

وإليك مقتطفات من رسالة الفاتح إلى أخيه سلطان مصر الأشرف إينال وهي من إنشاء الشيخ أحمد الكوراني : « . . إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : ٢٩] ومستمسكين بقوله عليه السلام : «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار، فهممنا في هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى : «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار [التوبة : ١٢٣] وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً .

فكأنها حصف على الخد الأغر وكأنها كلف على وجه القمر

.... هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » كل أهبة يعتد بها و وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر، والفلك المشحون والجوار المنشآت في البحر كالأعلام من جانب البحر، ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة .

فقلت للنفس جدي الآن فاجتهدى وساعديني فهذا ما تمنيت فلكما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين، فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوما وليلة . فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين، سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري لآل عثمان قد من الله ، بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها * سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمره وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب، فقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفافينهم موفوراً، فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصرا الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون . . ».

•• رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة:

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح، وطلب الدعاء، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها : بعد مقدمة في المدح والثناء على شريف « مكة المكرمة ، يقول : « فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرا بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية، فالمأمول من مقر عزكم الشريفة أن يبشر بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى، مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ، والأمجاد الواصلين، والأئمة الخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، والمتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التي كالعروة الوثقى لا انفصام لها، والمشرفين بزمزم والمقام، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام، داعين لدوام دولتنا في العرفات متضرعين من الله نصرتنا، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم، وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم

خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلورى أخري للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصين للحرمين، والباقي للمساكين المحتاجين في مكة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم، وإشعار كيفية السير إلينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا دائما باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين» .

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح : هـ وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هي إلا فتح « القسطنطينية » العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، وبششنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام، روح الله أرواحهم وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم، في إظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة »

الفصل الثالث

الإمبراطورية العثمانية وعهد السلاطين العظام

أولًا: الصراع بين أمراء الامبراطورية العثمانية على العرش ١٤٨١-١٥١٢م.

ثانيًا: السلطان سليم الأول ١٥١٢- ١٥٢٠م.

ثالثًا: السلطان سليمان القانوني ونهاية عصر السلاطين العظام ١٥٢٠-١٥٦٦م.

استطاع العثمانيين في بداية تأسيس دولتهم من تكوين إمبراطورية عظيمة في مرحلتها الأولى في الفترة من ١٣٦٠- ١٤٨١م، لتبدأ المرحلة الثانية لاستكمال هذا البناء العظيم للإمبراطورية العثمانية، والتي تبدأ من الفترة ١٤٨١- ١٥٦٦م، تلك الفترة التي تتطرق فيها الامبراطورية ناحية الشرق الإسلامي لتوسيع رقعة امبراطوريتهم العظيمة، اضافة إلى توسيع رقعتهم في أوروبا واستقرار أوضاع الامبراطورية بعد قضائهم على القوى الأوروبية.

أولًا: السلطان بايزيد الثاني.

بعد فاة السطان محمد الفاتح تولى ابنه با يزيد الثاني (٨٨٦هـ - ٩١٨هـ) السلطة في البلاد وكان سلطانا وديعا، نشأ محبا للأدب، متفقها في علم الشريعة الإسلامية شغوفا بعلم الفلك . واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها.

أولا: الصراع على السلطة مع أخيه:

كان الأمير جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم في بروسة، وقد استطاع أن يتحصل على اعتراف السكان به سلطانا على الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة له، وبعد أن استتب له الأمر في بروسة ما حولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل، ورفض السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن الأمير جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه با يزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوروبي لبايزيد والقسم الآسيوي له، لكن با يزيد رفض أيضا مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التي سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشا ضخما سار به إلى بروسة وهاجمها وفر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر فرحب به أكرمه وأمده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الأراضي المقدسة إلى مصر أرسل إليه السلطان با يزيد يقول له : (بما أنك اليوم قمت بواجباتك الدينية في الحج، فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة

الله؟ فأجابه بقوله : هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة النعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسي على الشوك(٣)؟ وقام جم بالاتصال بكبارأتباعه في الأناضول، وأثارهم ضد با يزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضا .

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القديس يوحنا، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقا إلا أنه نقضه تحت ضغط با يزيد وأصبح جم سجينا في جزيرة رودس، وكسب فرسان القديس يوحنا بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات طورا من بايزيد الثاني، ومرة أخرى من أنصار جم بالقاهرة، فلما تحصل على أموال ضخمة باع رهينته للبابا أنوست الثامن، فلما مات هذا البابا ترك لخلفه إسكندر السادس. ولكن الأخير لم يبق على جم كثيرا حيث قتل واتهم في ذلك بايزيد الثاني الذي تخلص من خطر أخيه جم.

ثانيا: موقف السلطان بايزيد من المماليك:

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما، الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة ١٤٩١م ومع أن السلطان المملوكي و قايتباى » قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السطان العثماني « بايزيد الثاني » قد بدد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود : وقد لقي هذا الأمر ترحيبا لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت سياسة با يزيد السلمية في . عقد صلح بين العثمانيين والمماليك في نفس السنة (١٤٩١م) وظل هذا الصلح ساريا حتى نهاية عهد السلطان با يزيد الثاني عام ١٥١٢م وأكد هذا الحدث حرص السلطان با يزيد على سياسة السلام مع المسلمين.

ثالثا: السلطان بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية:

استمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان با يزيد، وأدرك الأعداء أنهم لا يستطيعون مواجهة القوات الجهادية في حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم، لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل، ففي عهد السلطان با يزيد وصل أول سفير روسي إلى (إسلامبول) عام (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م).

إن وصول السفير الروسي عام (١٤٩٢م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها . وفي عهد با يزيد الثاني في عام (٨٨٦هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدى المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية. لا يعني ذلك أن السلطان (با يزيد) وقف موقفا ضعيفا أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوروبا الشرقية كلها، فانشغلت بها.

رابعا: وقوفه مع مسلمي الأندلس:

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبرية في مطلع العصور الحديثة، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصا بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغوان، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل أسبانيا، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة، التي كانت رمزا للمملكة الإسلامية الذاهبة(٣). وفرضت أسبانيا أقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية . نتيجة لذلك لجأ المسلمون – المورسكيون – إلى

القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية والتي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنو المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فسادا وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم.

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي. وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه الرعايا المسيحيين، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثمانى با يزيد الثاني، فوصلته هذه الرسالة (. .الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفاح،

وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد وكانت ضمن الرسالة أبيات قصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان با يزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء

كانت هذه هي رسالة الاستنصار التي بعث بها المسلمون في الأندلس، لإنقاذ الموقف هناك، وكان السلطان با يزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا، وما أسفر عنه هذا التحالف من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان با يزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقا بموجبه يرسل السلطان با يزيد أسطولا على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة أسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا وبالفعل أرسل السلطان با يزيد أسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر، كما شجع السلطان با يزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكانوا المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين، وفي نفس الوقت كانا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته. بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين وهذا الذي كان في وسع السلطان با يزيد الثاني فعله .

لا شك أن تصرفات جم المشينة كانت سببا أعاق حركة التوسع الإقليمي وعرقلت السلطان با يزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصبا على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكل الوسائل.

وعلى العموم، فقد استطاع با يزيد أن يحرز نصراً بحريا على البنادقة في خليج لبانتو ببلاد اليونان عام ١٤٩٩م / ٩٠٥ هـ وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان، أقام البابا(إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة – حلفا ضد العثمانيين مكونا من فرنسا وأسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة : الفرنسي والإسباني والبابوى واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً – مع البنادقة.

وكان با يزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا وعقد صلحا مع البنادقة والمجر. اهتم با يزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتى ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرسى المدارس السلطانية ما بين سبعة آلاف وألفي عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته، وصار ذلك أمرا جاريا ومستمرا، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة.

وحدثت في زمانه زلازل عظيمة في القسطنطينية فأخربت ألفا وسبعين بيتا ومئة وتسعة جوامع، وجانبا عظيما من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر، فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يوميا مدة ٤٥ يوما، وما أن سكنت الأمور كلف السلطان ١٥ ألفا من العمال بإصلاح ما تهدم.

عاش بايزيد الثاني سبعا وستين عاما، وكان قوى البنية، أحدب الأنف، أسود الشعر، رقيق الطبع، محبا للعلوم، مواظبا للدرس، وشاعراً أديبا، ورعا تقيا، يقضى العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة والذكر والطاعة، وكان بارعا في رمي السهام، ويباشر الحروب بنفسه وكان يجمع في كل منزل حل من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه، ولما دنا أجل موته، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن، ففعل ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ :« من اغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار». وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياما.

كان السلطان با يزيد الثاني عالما في العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالما في الفلك، مهتما بالأدب مكرما للشعراء والعلماء، وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالما، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصى بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله وفي ذلك يقول :

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة في الأشجار انظر إلى قدرة الله الحق، فى ١٨ صفر ٩١٨ هـ الموافق ٢٥ أبريل ١٥١٢م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢- ١٥١٩م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجي في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه

وتوفى السلطان با يزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن بجوار جامعه الشريف.

ثانيَا: السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م)

تربع السلطان سليم الأول على العرش العثماني بعد وفاة أبيه السلطان بايزيد الثاني في عام ٩١٨هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ، ورغم

قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكى أمجاد الماضى.

عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر في التوسع الإقليمي في أوروبا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية، فقد توقف في عهد الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف ، واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي وقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التي أدت إلى تغير السياسة العثمانية منها :

١- التشبع العسكري العثماني في أوروبا، إذ يرى أصحاب هذا الرأى أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع وهذا الرأى يخالفه الصواب لأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية، ولكن لا ريب في أن مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق ليس بسبب التشبع كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع .

٢- كان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من جانب الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه.

٣- سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى، هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة.

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على هذه الأسس ألا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية، وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقى للقضاء على الأسبان ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا . .

أولا: محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

يعد نسب الصفويين إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلي ٦٥٠ – ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢ – ١٣٣٤م الجد الأكبر للشاه إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية .

وقد ألتف حول الشيخ صفى الدين الأردبيلي عدد كبير من الأتباع المريدين نتيجة للدعوة القوية أو الدعاية المؤثرة التي قام بها هو وأتباعه من المتصوفة والدراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها وإنما في بعض أقاليم الدولة العثمانية وفي العراق وبلاد الشام. الدعوة الشيعية، بل إن السلطان حيدر أكد صلة نسبه بالإمام موسى الكاظم ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية في إيران تعد نفسها من آل بيت رسول الله ﷺ.

صمم إسماعيل الصفوى على فرض المذهب الشيعي على شعبه وأعلنه مذهباً رسميا للدولة في إيران، وقضى بالقوة المسلحة على معارضيه واستطاع الصفويون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرة من الأتباع والمريدين، وتكاتفت الدعاية الشيعية القوية سواء في بقايا (العبيديين) الفاطميين في مصر أو الإسماعيلية أو الأسرة الصفوية نفسها في إعلان المذهب الشيعي في إيران لتتحول كلها من بعد ذلك من المذهب السني إلى مذهب الدولة الجديدة وهو المذهب الشيعي .

وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة أن كثيرين من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا من السنة، بل إن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوى شيعى، بذل الشاه إسماعيل الصفوى جهوداً ضخمة في فرض المذهب الشيعي في إيران، فعلى الرغم من التهيئة الروحية للدعوة الشيعية بين سكان إيران الذين كانوا في غالبيتهم من السنة فقد رأى

إسماعيل الصفوى أن يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشيعية للغرض هذا ووجد منها تأييداً ومناصرة واستغل حميتهم لمناصرتهم فدفعهم لضرب معارضيه والتأكيد لمذهبه في إيران .

لجأ الشيخ إسماعيل الصفوى إلى سياسة ماهرة في تأكيد دعوته السياسية، والمذهبية فاعتمد على قبائل الترلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية، ذلك أن المجتمع الإيراني في ذلك الوقت كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة لموجات الغزو المتعاقبة على البلاد مما كان يصعب معه صهر كل هذه العناصر في بوتقة واحدة . لقد استطاع إسماعيل الصفوى بهذه السياسة أن يجند الطاقة المذهبية عند هذه العناصر لتكون المحور الذي تلتف حوله وتذوب فيها الفوارق العرقية وتحل محلها وحدة مذهبية يمكن له أن يقيم عليها الكيان السياسي الجديد.

لقد كان إسماعيل الصفوى شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إن كانوا من أهل السنة (. . افتتح ممالك العجم جميعا وكان يقتل من ظفر به وما نهبه من الأموال قسمه بين أصحابه ولا يأخذ منه . شيئاً ومن جملة ما ملك تبريز وإذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب خراسان وكاد أن يدعي الربوبية وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره . قال قطب الدين الحنفي في الأعلام : إنه قتل زيادة على ألف ألف نفس، بحيث لا يعهد في الجاهلية ولا في الإسلام ولا في الأمم السابقة من قبل في قتل النفوس ما قتله شاه إسماعيل وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم وكان شديد الرفض بخلاف آبائه ومن جملة تعظيم أصحابه له أنه سقط مرة منديل من يده إلى البحر وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وغرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية . ذكر ذلك القطب المذكور ولم تنهزم له راية حتى حاربه السلطان سليم المتقدم ذكره فهزمه . .).

لقد تزعم الشاه إسماعيل المذهب الشيعي وحرص على نشره ووصلت دعوته إلى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، وكانت الأفكار والعقائد التي تنشر في تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثماني السني، حيث كان من عقائدهم الفاسدة : تكفير الصحابة،

لعن العصر الأول، تحريف القرآن الكريم، وغير ذلك من الأفكار والعقائد . فكان من الطبيعي أن يتصدى لتلك الدعوة السلطان سليم زعيم الدولة السنية، فأعلن في اجتماع لكبار رجال الدولة والقضاة ورجال السياسة وهيئة العلماء في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أن إيران بحكوماتها الشيعية ومذهبها الشيعي يمثلان خطراً جسيما لا على الدولة العثمانية وحدها بل على العالم الإسلامي كله وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية وكان رأى السلطان سليم هو رأى علماء أهل السنة في الدولة، لقد قام الشاه إسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع ودمر مساجدهم ومقابرهم وازداد الخطر الشيعي ضراوة في السنوات الأخيرة من عهد السلطان بايزيد وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت أجهزة الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه إسماعيل والمناوئين للدولة العثمانية ثم قام بتصفية أتباع الشاه إسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من انصار الشاه إسماعيل في الأناضول ثم قام بمهاجمة إسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد، وكتب السلطان سليم رسالة إلى إسماعيل الصفوى قال فيها : (... إن علماءنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا إسماعيل، بصفتك مرتداً، وأوجبوا على كل مسلم حقيقي أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهراطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهاء، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فإننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الأقاليم التي اغتصبتها منا اغتصاباً، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك . . .). وكان رد إسماعيل الصفوى على هذا الخطاب أن بعث للسلطان العثماني هدية من الأفيون قائلا : إنه اعتقد أن هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر.

كذلك جاء في خطاب آخر مشابه : (. . . أنا زعيم وسلطان آل عثمان، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الإسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الإسلام، أنا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذل أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتى صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهمام السلطان سليم خان بن

السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه إليك أيها الأمير إسماعيل، يا زعيم الجنود الفارسية .. ولما كنت مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين.. وإذ قد أفتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخليص الناس من شرك.

أعد السلطان سليم الأول لمعركة فاصلة مع الدولة الصفوية حيث وصل إلى استانبول وبدأ في التحرك مع استانبول تجاه الأراضي الإيرانية وبعد أن غادر اسكوتراي أرسل يهدد الشاه إسماعيل الصفوى في رسالة يقول فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم قال الله الملك العلام إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، اللهم اجعلنا من الهادين غير المضلين ولا الضالين وصلى الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبي وصحبه أجمعين . .).

وفي نفس الوقت أرسل السلطان سليمان الأول إلى أحد أفراد أسرة آق قويونلو وهو محمد بن فرج شاه بيك يحثه على الاشتراك معه في قتال إسماعيل الصفوى، وبدأت حرب الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين، إلا أن سليم الأول قد بدأ التحرك نحو الدخول في القتال حيث عسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من أذربيجان، ووصلت الأنباء التي أنت بها عيون ياس جمن تقول إن الشاه إسماعيل الصفوى لا ينوى القتال وأنه يؤخره إلى أن يحل فصل الشتاء حتى يهلك العثمانيون برداً وجوعاً.

وبدأ سليم الأول يسرع في تحريك الصراع بينه وبين الشاه إسماعيل فأرسل إليه للمرة الثانية وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولاً وعصا رمز فوق الدراويش وهو بهذا يقصد إلى أن يذكره بأصله، وبأهل الأسرة الصفوية التي لا تستطيع الصمود في الحرب، ومع ذلك فقد رد الشاه إسماعيل بطلب المهادنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، ولم يقبل سليم الأول هذا من شاه الصفويين، وأهان رسوله وأمر بقتل رسول الشاه الصفوى وقد أدرك سليم الأول أن خطة أعدائه تتلخص في المهادنة والتباطؤ لتأجيل موعد اللقاء حتى يحين فصل الشتاء، واستمر السلطان سليم في تحركه

ووصلته الأخبار أن إسماعيل الصفوى قد بدأ الاستعداد للقتال والحرب بل إنه على وشك الوصول إلى صحراء جالديران، فبدأ سليم الأول المسير نحوها فوصلها في أغسطس عام ١٥١٤م، واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضبية فيها مما مكنه من إيقاع الهزيمة بإسماعيل الصفوى وجنوده وكانت هزيمة ساحقة حلت بالجيش الصفوى الشيعي على أرضه.

واضطر إسماعيل إلى الفرار في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يستعد فيه للدخول إلى تبريز عاصمة الصفويين. ودخل سليم الأول تبريز وحصر أموال الشاه الصفوى ورجال القلزباس واتخذها مركزاً لعملياته الحربية.

لم ينته الصراع بين السنة في الدولة العثمانية والشيعة في إيران بانتهاء معركة جالديران وإنما ازداد العداء حدة وازداد الصراع ضراوة وظل الطرفان يتربص كل منهما بالآخر. لقد انتصر السلطان سليم بفضل الله تعالى وعقيدته السليمة ومنهجه الصافي، وأسلحته المتطورة وجيشه العقدي المتدرب، وعاد إلى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرغش وإبلسين وبقى أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت الطرق إلى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين(وما أن هزمت فارس في موقعة جالديران السابقة أمام السلطان سليم حتى كان الفرس أنفسهم أكثر استعداداً وتقبلاً من قبل للتحالف مع البرتغاليين، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدى شاه إسماعيل وتم الدخول في اتفاقية محدودة ما بين البرتغاليين والصفويين نصت على ما يلي : أن يقدم البرتغال أسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه إسماعيل لقمع الثورة في مكران وبلوجستان وأن يكون الشعبان البرتغالي والفارسي اتحاداً ضد العثمانيين، إلا أن وفاة البوكرك التي أتت بعد ذلك قد أعاقت ذلك التحالف.

لقد أظهر البرتغاليون تودداً للشاه إسماعيل قبل معركة جالديران وكانوا يهدفون من وراء تودهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع

القوى المحلية في الخليج قد يؤدى إلى فشل البرتغاليين في تحقيق أهدافهم ولاسيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الفرس في رسالة أرسلها « البوكرك » إلى الشاه « إسماعيل الصفوي » جاء فيها : (إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد).

لقد أدت هزيمة الشاه إسماعيل أمام العثمانيين إلى حرصه الشديد للتحالف مع النصارى وأعداء الدولة العثمانية ولذلك تحالف مع البرتغاليين وأقر استيلاءهم على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى جانب تعهدهم بمساندتهم ضدا العثمانية وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوى تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين.

يقول الدكتور عبدالعزيز سليمان نواز : (... إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط وكان مستعداً لأن يتحالف حتى مع البرتغاليون أشد القوى خطراً على العالم الإسلامي حينذاك، وهكذا بينما كان البرتغاليين يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم في المياه الإسلامية، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم .

ومع أن ملك هرمز – الجزيرة الصغيرة التي أضيرت بشدة في اقتصادياتها التجارية بمجيء البرتغاليين المريع، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين في مقدمة أية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين، فلا غرو أن وافق على أن تظل هرمز : تحت السيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الإحساء

ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه . وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالي على الخليج . .).

اكتفى السلطان العثماني بانتصاره في جالديران واضطر إلى الرجوع إلى بلاده وترك مطاردة الشاه إسماعيل لعدة أسباب :

١ – حدوث نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقق السلطان هدفه وأضعف شوكة إسماعيل الصفوي .

٢ – خوف السلطان سليم من أن يقع جيشه في كمائن للصفويين إذا توغل في بلادهم .

٣ – رأى أن يهتم بالقضاء على المماليك لأن جهاز أمن الدولة العثمانية ضبط رسائل بين المماليك والصفويين تدل على وجود تعاون ضد الدولة العثمانية(٣).

* وكانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين :

١–ضم شمالي العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية .

٢– أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية .

٣– سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوى ثم هزيمة الشيعة في جالديران وهذا أشعر الدولة بمسئوليتها تجاه العالم الإسلامي، وبخاصة بعد أن أعلن نفسه حاميا للمسلمين.

٤– شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهي دولة المماليك.

٥– أثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة إيرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة في الأناضول . لقد هبطت الإيرادات بعد سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين، إذ أقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادها الأخطار، وصار التبادل التجاري بين الأقاليم الإيرانيا والعثمانية محدودا، إذ انخفض إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي.

٦- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاما على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

٧- دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا .

ثانيا: ضم دولة المماليك:

بعد أن تغلب السلطان سليم الأول على الصفويين في شمال وغربي إيران بدأ السلطان العثماني يستعد للقضاء على دولة المماليك ولقد ساهمت عدة أسباب في توجه العثمانيين لضم الشام ومصر منها :

١- موقف المماليك العدائي من الدولة العثمانية حيث قام السلطان قانصوه الغوري (٩٠٧ - ٩٢٢ هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) سلطان الدولة المملوكية بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم وكان في مقدمتهم الأمير أحمد أخو السلطان سليم، وأرادت السلطات المملوكية أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداة لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم، كما كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوى مع الشاه إسماعيل الصفوى فهي لم تلتزم الحياد التام بين العثمانيين والصفويين، وهي لم تتخذ موقفا عدائيا . صريحا . من السلطان سليم.

٢- الخلاف على الحدود بين الدولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام . فقد تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك . وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة التامة على منطقتها وسكانها.

٣- تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة

والأعيان والأشراف وأهل الرأى مع الشعب، وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والاشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون إن الشعب السوري ضاق « بالظلم » المملوكي وإن حكام المماليك و يخالفون الشرع الشريف »، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيرا عن فرحته، سيخرج بجميع ف فئاته وطوائفه إلى عينتاب – البعيدة عن حلب– ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سرا ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس.

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلى : (يقدم جميع أهل حلب : علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالى، ببدون استثناء طاعتهم وولاءهم – طواعية – لمولانا السلطان – عز نصره – وبإذنهم جميعا، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية . إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضا من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، إن الشريعة الإسلامية، لا تأخذ مجراها هنا، وهى معطلة، إن المماليك إذا أعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالا أو نساء أو عيالا، فالرحمة لا تأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلا من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، (ونريد) قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزير من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلاً حائزا على ثقتكم يأتي سراً ويلتقى بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين).

أما علماء وفقهاء مصر فقد ذكر عبد الله بن رضوان في كتابه : تاريخ مصر (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة با يزيد في استانبول، إن علماء مصر (وهم نفس الشعب المصرى وممثلوه) يلتقون سرا بكل سفير عثماني يأتى إلى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و(يستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتى ويأخذ مصر).

لقد كان علماء مصر يراسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولي عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك).

٤- رأى علماء الدولة العثمانية أن ضم مصر والشام يفيد الأمة في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الإسلامية وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي.

ونستدل على ذلك بما قاله السطان سليم الأول العثماني لطومان باى آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا كنت متوجها إلى جهاد الرافضة (ويعني الصفويين) والفجار (ويعنى بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا)، فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى إلى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه).

(أ) وقوع الصدام :

بعد التطورات التي حدثت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية كان على السلطان المملوكي قانصوه الغوري أن يتخذ أحد المواقف تجاه الحدث إما :

١- أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

٢- أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين .

٣- أن يقف على الحياد بين الطرفين .

وفضل الغوري أن يقف على الحياد في ظاهره إلا أن المخابرات العثمانية عثرت على خطاب تحالف سرى يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفرس، والخطاب محفوظ في أرشيف متحف طوب قابو في استانبول . وكان السلطان سليم يريد الكرة على الشيعة الصفوية في بلاد فارس ومع توتر الأحداث رأى السلطان سليم تأمين ظهره وذلك بضم الدولة المملوكية إلى أملاكه .

والتقى الجمعان على مشارف حلب في مرج دابق عام ١٥١٧م وانتصر العثمانيون وقتل الغوري سلطان المماليك وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه مشارف حلب . ودخل سليم حلب ثم دمشق ودعى له في الجوامع وسكت النقود باسمه سلطانا وخليفة. ومن الشام أرسل السلطان سليم إلى زعيم المماليك في مصر طومان باى أن يلتزم بالطاعة للدولة العثمانية وكان رد المماليك السخرية برسول السلطان ثم قتله . وقرر السلطان سليم الحرب وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين قاصدا مصر ونزلت الأمطار على أماكن سيرا الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يسهل اجتيازها .

يروى المؤرخ سلاحثور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب – وكان مصاحبا لسليم – أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاء حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر.

وحقق العثمانيون انتصاراً ساحقا على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية . وتعود الأسباب التي أدت إلى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم إلى:

١- التفوق العسكرى لدى العثمانيين : فسلاح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، في حين كان سلاح المدفعية العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل الاتجاهات .

٢- سلامة الخطط العسكرية العثمانية : فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضطروا إليها ومحاربتهم في أرض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك، كل ذلك كان مما يدخل في عوامل النصر، ومن سلامة التخطيط أيضا استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة – إذا أريد تحريكها – ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

٣- معنويات الجيش العثماني العالية وتربيته الجهادية الرفيعة واقتناعه بأن حربه عادلة بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات .

٤- حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها.

هـ – قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السلطان سليم وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسئولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ومن أمثال هؤلاء : فاير بك الذي أسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردي الغزالى الذي تولى حكم دمشق.

لقد تلقى المماليك الهزيمة في سنة ١٥١٦ /١٥١٧م وهم في شيخوخة دولتهم وفي آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التي كانت تحت حكمهم للنفوذ العثماني(١). وقد نقل الدكتور على حسون عن الجبرتي من كتابه تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد

الأول وصفا لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضا منها :

(.. وعادت مصر إلى النيابة كما كانت في صدر الإسلام ولما خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار ورتب للايتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم، ولما توفى تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالك وأنار الحوالك، ورفع منار الدين وأحمد نيران الكافرين . . لم تزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم .. وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهدديين وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين، فلذلك اتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم . . هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين.

(ب) مسألة انتقال الخلافة :

إن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر وقد قيل إن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين المصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم إلى ابنه سليمان لم ترد فيها أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الذين لا ينتسبون إلى الرسول ﷺ .

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب « خليفة الله في طول الأرض وعرضها » منذ عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان .

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيمة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتد به . كما أن فتوح سليم أكسبته قوة ونفوذا معنويا وماديا وخصوصا بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه، وأصبح السلطان العثماني مقصدا للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون إلى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليين الموانئ الإسلامية في آسيا وإفريقيا. ملخص المبحث أن السلطان سليم لم يكن مهتما بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية.

(جـ) أسباب انهيار الدولة المملوكية :

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وساعدت في وضع نهاية لدولة المماليك أهمها :

١- عدم تطوير المماليك أسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائدا في العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الأسلحة النارية وبخاصة المدفعية .

٢- كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات .

٣- كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية مترفعة منعزلة عن الشعوب .

٤- وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك، كما فعل والى حلب (خاير بك وجانبرد الغزالي » مما أدى إلى سرعة انهيار الدولة المملوكية .

٥ - سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

٦- العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة تمسك العثمانيين بشرع الله.

(د) خضوع الحجاز للعثمانيين :

كانت الحجاز تابعة للمماليك وعندما علم شريف مكة بمقتل السلطان الغورى ونائبه طومان باى بادر شريف مكة «بركات بن محمد » إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار، فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميرا على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة.

وبذلك أصبح السلطان سليم خادما للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة، وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني، وقد أدى ضم الحجاز إلى العثمانيين إلى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر مما أدى إلى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر.

(هـ) اليمن :

بعد انهزام المماليك قدم حاكم اليمن المملوكي الجركسي (اسكندر) وفدا إلى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له فوافق السلطان العثماني على إبقائه في منصبه وكانت اليمن تشكل بعدا استراتيجيا وتعتبر مفتاح البحر الأحمر، وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز وكانت السيطرة العثمانية في بداية الأمر ضعيفة، بسبب الصراعات الداخلية بين القادة والمماليك إلى جانب نفوذ الإمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلاً عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية وهذا دفع السلطان إلى إرسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين قائدها « حسين الرومي » متصرف جدة وه الريس سلمان » أحد قادة البحر العثمانيين.

ثم أرسل السلطان سليمان حملة « سلمان باشا أرناؤطي » سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م وقد ضمت الحملة ٧٤ سفينة و٢٠,٠٠٠ شخص وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة عدن ثم إغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية ودخل العثمانيون عدن عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م، وتعز عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م، وسقطت صنعاء في قبضتهم عام ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م وتحرك « سلمان باشا » بأسطوله

ليستولى على بعض الموانئ العربية في حضرموت ومنها « الشحر، والمكلا » واجتاح ساحل الحبشة، وسواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الأحمر ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م.

وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (١٥٣٨ – ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي تواجههم. وقد ظلت اليمن في فترة هيمنة الدولة العثمانية عليها (١٥٣٨– ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يسيطروا كليا على البلاد بسبب تمرد بعض القبائل. واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد الضغط البرتغالي تخليصه منهم.

ثالثا: الصراع العثماني البرتغالي:

قامت دولة البرتغال في عام ١٥١٤م بتحريك حملة على المغرب الأقصى يتزعمها الأمير هنرى الملاح واستطاعت تلك الحملة أن تحتل ميناء سبتة المغربي، وكان ذلك بداية لسلسلة الأعمال العدوانية المتتالية، ثم واصلت البرتغال حملاتها على الشمال الأفريقى حتى تمكنت الاستيلاء على أصيل، والعرائش ثم طنجة في عام ١٤٧١ للميلاد. وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامة جدا مثل ميناء « أسفى وأغادير، وأزمورة، وماسة ». من من وأما عن توجه البرتغال إلى المحيط الأطلسي ومحاولتهم الالتفاف حول العالم الإسلامي فقد كان العمل مدفوعا بالدرجة الأولى بدوافع صليبية شرسة ضد المسلمين، حيث اعتبرت البرتغال أنها نصيرة المسيحية وراعيتها ضد المسلمين، حيث اعتبرت قتال المسلمين ضرورة ماسة وصارمة ورأت الإسلام هو العدو اللدود الذي لابد من قتاله في كل مكان.

وكان الأمير هنري الملاح شديد التعصب للنصرانية عظيم الحقد على المسلمين وقد تحصل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقا في جميع كشوفه حتى بلاد الهند، حيث قال : (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال، إذ

يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله إلى أقاصى البلاد وأبعادها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة . .).

وقال البوكرك في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله إلى « ملقا » ما نصه :(إن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام) . وفي نفس الخطبة قال :(الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب، وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة « ملقا » هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك).

وقال في يومياته :(كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوى وأخذ رفات النبي محمد ﷺ رهينة لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس.

وقال ملك البرتغال عمانويل الأول معلنا أهداف الحملات البرتغالية : إن الغرض من اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق . وهكذا يظهر للباحث المنصف أن الدافع الديني للكشوف البرتغالية كان من أهم العوامل التي دفعت البرتغال لارتياد البحار والالتفاف حول العالم الإسلامي، فصدرت المراسيم والأوامر، ورسم الصليب والمدفع كشعار للحملات، وكان القصد من ذلك أن على المسلمين اعتناق المسيحية وإلا عليهم مواجهة المدفع. وكان الدافع الاقتصادي في الدرجة الثانية كعامل مؤثر في سير الكشوف الجغرافية البرتغالية، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٧م بواسطة فاسكو دى جاما مهمة وصول منتجات الشرق الأقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة إلى مرورها عن طريق مصر، ولهذا ساعد تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية والإسلامية . – ساعد – على تحقيق الهدف الديني وذلك لما للمجال الاقتصادي من

أثر فعال في إضعاف القوة الإسلامية التي كان لها أبلغ الأثر في زعزعة أوروبا خلال عدة قرون، فضلاً عن الركود الاقتصادي الذي منيت به الدولة المملوكية بسبب هذا التحول المفاجئ.

ومما يجدر ذكره أن البرتغاليين استعانوا في حملاتهم باليهود الذين استخدموا كجواسيس، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية، وعلى سبيل المثال فقد أرسل ملك البرتغال يوحنا الثاني خادمه الخاص ومعه رفيق آخر يهودي إلى مصر والهند والحبشة وكان من نتائج رحلتهما تقديمهما تقريرا يتضمن بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي.

وذكر ابن إياس إنه في زمن الشريف بركات أمير مكة تسلل ثلاثة أشخاص إلى مكة وكانوا يحومون حول المسجد الحرام وعليهم لباس عثماني ويتحدثون العربية والتركية، فأمر بالقبض عليهم و بالكشف عن أجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان ، وبعد التحقيق معهم ظهر أنهم جواسيس، أرسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخوله لمكة، وتم بعد ذلك إرسالهم إلى السلطان قانصوه الغوري(٣). ولتحقيق الأهداف البرتغالية رأى رواد الكشوف وساستهم ضرورة التحكم في مضيقى « هرمز» و«باب المندب » لكي يحكم أعداء الإسلام غزوهم للعالم الإسلامي من الخلف ودق ، الاقتصاد في المناطق العربية والإسلامية ثم بالتالي نشر المسيحية في كل موقع يصلون عصب إليه.

ونجح البرتغاليون في خططهم وتمكنوا من السيطرة على معابر التجارة في الساحل الأفريقي والخليج العربي وبحر العرب، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشرقية إلى أوروبا عن طريقها، وقد ساعدهم في تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحرى لهم، مما سهل لهم السيطرة على المراكز الهامة بيسر وسهولة، ثم لم يتورع البرتغاليون بعد ذلك عن استخدام العنف فشهدت المناطق التي وصلوا إليها واحتلوها الكثير من المجازر وإشعال النيران والتدمير، والاعتداء على حرمات الناس ومنع المسلمين من الذهاب إلى الحج وهدم المساجد عليهم.

أما عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك في موقف لا يحسدون عليه حيث أصابهم الوهن الاقتصادي والسياسي، وانشغل السلاطين بمشاكلهم الداخلية ومجابهة الدولة العثمانية وقمع نشاط الفرسان الإسبارتية في شرق البحر الأبيض المتوسط ولهذا واجه السكان في الساحل الأفريقي والخليج واليمن مصيرهم بأنفسهم، فهاجموا الحاميات البرتغالية في كل مكان، في شرق أفريقيا وفي مسقط والبحرين وقريات وعدن، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى.

ثم إن المماليك شعروا بالمسئولية على الرغم من المشاكل التي كانت تعيشها دولتهم، وبذلوا ما في استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين إلى الأماكن المقدسة، فقام السلطان قانصوة الغوري بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة عليها ألف وخمسمائة رجل بقيادة حسين الكردي الذي وصل إلى جزيرة « ديو » ثم « شول ، والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة « الونز دى الميدا» وذلك في عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م فكان النصر حليفه، ثم إن البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة أخرى مما أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلامي سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م في معركة «ديو» المشهورة في التاريخ.

أما عن الدولة العثمانية فكانت في البداية بعيدة عن ساحة المعركة ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك والدولة الصفوية ومع ذلك لبى السلطان با يزيد الثاني طلب السلطان الغورى مساعدته ضد البرتغال، فأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطارا من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة. ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا.

وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل : مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير على بك إلى الساحل الأفريقى فتم تحرير مقديشو وممبسة ومنيت الجوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

وفي عهد السلطان سليمان القانونى ٩٢٧ – ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ – ١٥٦٦م تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي .

لقد أدرك السلطان سليمان أن مسئولية الدفاع عن الأماكن المقدسة هي مسئولية الدولة العثمانية، فبادر بعقد اتفاق مع حاكمى « قاليقوط » و« كامباى » وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغال، ثم أعقب ذلك الاتفاق إصداره مرسوما إلى سليمان باشا الخادم والى مصر هذا نصه : (عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه، : حقيبتك وحاجتك، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية إلى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر).

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السلطان العثماني، ووصل بعد سبعة أيام إلى جدة ثم اتجه إلى كمران وبعد ذلك سيطر على عدن وعين عليها أحد ضباطه وزودها بحامية بلغ عدد جنودها ستمائة جندي، ثم واصل سيره إلى الهند، وعند وصوله إلى ديو لم يتمكن من الاستيلاء عليها وانسحب . عائدا. بعد أن فقد حوالي أربعمائة من رجاله، وحاول مرة أخرى الاستيلاء على القلاع الأمامية حتى استسلمت إحداها وتم أسر ثمانين برتغاليا، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي لاستسلمت جميع القلاع، وتم طرد البرتغاليين وخضعت قلعة ديو للعثمانيين خضوعا تاما. وهكذا تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلامية والحد من نشاطهم، وهكذا نجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبنى على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة .

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهالكة كانت على وشك الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالى فتحملت الدولة العثماني أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة ووصولهم إلى الأماكن المقدسة كما كانوا يرغبون.

أما عن الدولة الصفوية فقد تخلت عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو البرتغالى، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها، وزادت على ذلك أن سارت الدولة الصفوية في فلك الأعداء ولبت رغباتهم خاصة أنها على عداء وخلاف مذهبي مع المماليك والدولة العثمانية، ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل في عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م مبعوثه « روى جومير» ومعه رسالة ذكر فيها : (إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة، وسيجدني الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي، وسأنفذ له كل ما يريد ».

وقد صادف هذا العرض أو هذا الموقف الفترة التي كانت القوات العثمانية تتوجه فيها لمجابهة الصفويين على الحدود، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م التي انهزم فيها الفرس هزيمة ساحقة أمام الجيش العثماني، مما جعلهم – أي الفرس – أكثر استعدادا للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، فكانت فرصة البرتغال التي لا تعوض لا سيما وأنهم يدركون مدى الخطر الذي يهددهم ويقلق أمنهم من قبل الدولة العثمانية، فاستغلوا احتلالهم لهرمز عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصفويين بمعاهدة كان من أهم بنودها؛ تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاة في حملته على البحرين والقطيف مقابل اعتراف الشاة بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين في حالة المواجهة مع الدولة العثمانية عدوهما المشترك.

ويظهر أن البرتغال رأوا في تحالفهم مع الصفويين وسيلة تحقق عدم الوفاق بين الدول الإسلامية التي فيما لو اتحدت ضدها لما تمكنت من السيطرة على مقدرات الشعوب في مناطق الخليج والبحر الأحمر وعدن وغير ذلك من الأماكن التي خضعت للسيطرة البرتغالية؛ ومن جهة أخرى فإن التحالف الصفوى البرتغالي والوضع السياسي والاقتصادي المتدهور لدى دولة المماليك، كل ذلك جعل الدولة العثمانية تتحمل المسئولية كاملة في الدفاع عن الأماكن الإسلامية في كل موقع حاول البرتغاليون الوصول إليه والسيطرة عليه، لقد كان من نتائج الصراع العثماني البرتغالي :

١ –احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج .

٢ – حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.

٣ – استمرار الطرق التجارية التي تربط الهند وأندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

٤ – استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا في أسواق حلب، والقاهرة واسطنبول، ففي سنة ١٥٥٤م اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل وفي الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدة عشرون سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل، أصباغ، أنسجة).

.. وفاة السلطان سليم:

في التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، ليلة السبت توفى السلطان سليم رحمه الله – فأخفى موته الوزراء، وأرسلوا يعلمون ولده السلطان سليمان، فلما وصل إلى القسطنطينية أعلنوا موت السلطان سليم، وصلوا عليه في جامع السلطان محمد، .، ثم حملوه ودفنوه في محل قبره، وأمر السلطان سليمان خان ببناء جامع عظيم، وعمارة لطعام الفقراء صدقة على والده .

وكان رحمه الله عالما فاضلاً ذكيا، حسن الطبع، بعيد الغور، صاحب رأى وتدبير وحزم، وكان يعرف الألسنة الثلاثة : العربية والتركية والفارسية، ونظم نظاما

بارعا حسنا، وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة، وقهر الملوك وأبادهم، ولما كان بمصر كتب على رخام في حائط القصر الذي سكن فيه بخطه، فقال : توفى رحمه الله تعالى وله من العمر أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر.

ثالثًا: السلطان سليمان القانوني

ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك واليا عليها، اهتم به والده اهتماما عظيما، فنشأ محبا للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، ارتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره وكان متأنيا في جميع شئونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها، بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وإذا اتخذ عنه قراراً لا يرجع.

ابتلى سليمان في السنوات الأولى في عهده بأربعة تمردات شغلته . عن ركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان بردى الغزالي والى الشام بتمرد على الدولة وأعلن العصيان عليها وحاول أن يستولى على حلب إلا أنه فشل في ذلك وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرد جان بردي وأرسل إلى استانبول دلالة على انتهاء التمرد .

أولا: الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

وأما التمرد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر وكان هذا عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م وكان هذا الباشا طامعا في منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في تحقيق هدفه، وطلب من السلطان أن يعينه واليا على مصر فعينه. وما أن وصل إلى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطانا مستقلاً إلا أن أهل الشرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضد الوالي المتمرد وقتلوه وظل اسمه في كتب التاريخ مقرونا باسم الخائن .

والتمـرد الثالـث ضـد خليفـة المسـلمين هـو تمـرد شـيعى رافضـى قـام بـه بابـا ذو النـون عـام ١٥٢٦م فـي منطقـة يوزغـاد حيـث جمـع هـ هـذا البابـا مـابين ثلاثـة آلاف وأربعـة آلاف ثـائر وفـرض الخـراج علـى المنطقـة، وقويـت حركتـه حتـى أنـه اسـتطاع هزيمـة بعـض القـواد العثمـانيين الـذين توجهـوا لقمـع حركتـه، وانتهـت فتنـة الشيعـة هـذه بهزيمـة بابـا ذو النون وأرسل رأسه إلى استانبول .

والتمـرد الرابـع ضـد الدولـة العثمانيـة فـي عهـد سـليمان القـانوني كـان تمـردا شـيعيا رافضـيا أيضـا وكـان علـى رأسـه قلنـدر جلبـي فـي منطقتـي قونيـة ومـرعش وكـان عـدد أتباعـه ٣٠،٠٠٠ شيعـى قامـوا بقتـل المسـلمين السـنيين فـي هـاتين المنطقتـين، ويقـول بعـض المـؤرخين أن قلنـدر جلبـي جعـل شـعاره أن مـن قتـل مسـلما سـنيا ويعتـدى علـى امـرأة سـنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب .

توجـه بهـرام باشـا لقمـع هـذا العصـيان فقتلـه العصـاة، ثـم نجحـت الحيلـة معهـم إذ أن الصـدر الأعظـم إبـراهيم باشـا قـد اسـتمال بعـض رجـال قلنـدر جلبـى، فقلـت قواتـه وهـزم وقتـل . بعـد هـذا هـدأت الأمـور فـي الدولـة العثمانيـة وبـدأ السـلطان فـي التخطـيط لسياسـة الجهاد في أوروبا.

ثانيا: فتح رودس :

كانـت رودس جزيـرة مشاكسـة إذ كانـت حصـنا حصـينا لفرسـان القـديس يوحنـا الـذين كـانوا يقطعـون طريـق الحجـاج المسـلمين الأتـراك إلـى الحجـاز، فضـلاً عـن أعمـالهم العدوانيـة الموجهـة لخطـوط المواصـلات البحريـة العثمانيـة، فـاهتم السـلطان سـليمان بفتحهـا وأعـد حملة عظيمة ساعده على تحقيقها عدة أمور :

١ – انشـغال أوروبـا بـالحرب الكبـرى بـين شـارل الخـامس (كنـت) امبراطـور الدولـة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا .

٢ – عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية .

٣ – نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول . وشن سليمان القانوني حربا كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف عام ١٥٢٢م، وفتحها وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارل كنت) حق حكم هذه الجزيرة

ثالثا: قتال المجروحصار فيينا.

كان ملك المجر (فيلاديسلاف الثاني جاجليو) قد عزم على فك أي تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب إلى حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه . وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. ولهذا رد سليمان في عام ١٥٢١م بغزوة كبيرة ضد المجر، ولكن استمرت المعارك حتى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير، في موقعة موهاكس عام ١٥٢٦م، ودخل سليمان القانوني (بودا) في ١١ سبتمبر (أيلول) عام ١٥٢٦م واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥٢٩م، إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا إلى التصالح معه للتفرغ لحرب العثمانيين ولإنقاذ عاصمة الهابسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوروبية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان .

على أن أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التي تحولت إلى محالفة.

رابعا: سياسة التقارب العثماني الفرنسي :

كان عهد السلطان سليمان القانوني يمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك . ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من ٩٢٦ – ٩٧٢ هـ، الموافق ١٥٢٠ – ١٥٦٦م توسعا عظيما لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية .

وكـان لهـذا البـروز أثـره علـى دول العـالم المعاصـرة وبـالأخص علـى دول أوروبـا التـي كانـت تعـيش انقسـامات سياسـية ودينيـة خطيـرة، ولهـذا تنوعـت مواقـف الـدول الأوروبيـة مـن الدولـة العثمانيـة حسـب ظـروف كـل دولـة. وكـان تشـارلز الخـامس ملـك الامبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة ينـافس فرانسـوا الأول ملـك فرنسـا علـى كرسـي الحكـم للامبراطوريـة الرومانيـة، وكـان البابـا ليـو العاشـر منافسـا للراهـب الألمـاني مـارتن لـوثر زعيم المقاومة البروتستانتية.

وكانـت بلغـراد تعـاني مـن اضـطرابات داخليـة بسـبب صـغر سـن ملكهـا لـويس الثـاني ممـا أدى إلـى نشـوب النـزاع بـين الأمـراء. ولهـذا رأى فرانسـوا الأول أن يسـتغل مكانـة وقـوة الدولـة العثمانيـة ويكسـبها صـديقا لـه، فوقـف منـه موقـف التـودد والرغبـة فـي الوفـاق معتقـدا أن الدولـة العثمانيـة هـي التـي سـتحد مـن طموحـات تشـارلز الخـامس وتوقفـه عنـد حـده، وممـا يثبـت هـذا التوجـه الفرنسـي مـا ذكـره للسـفير الفينسـى عندمـا قـال : (سعـادة السفيـر لا يمكننـي أن أنكـر أننـي أرغـب بشـدة فـي أن أرى الأتـراك أقويـاء جـدا ومسـتعدون للحـرب ، لـيس فقـط لمصـلحة السـلطان العثمـاني الذاتيـة بـل لإضـعاف قـوة الامبراطـور تشـارلز الخـامس وتكليفـه غـاليا، وإعطـاء جميـع الحكومـات الأمـن والأمـان ضـد عـدو عظـيم كهـذا « الامبراطور تشارلز».

بـدأت مفاوضـات فرنسـا مـع الدولـة العثمانيـة بعـد معركـة «بافيـا » التـي أسـر فيهـا ملـك فرنسـا « فرانسـوا الأول » عـام ١٥٢٥م، فأرسـلت والدتـه والوصيـة عـلى العـرش مبعوثهـا وجـون فرانجيبـانى » ومعـه خطـاب منهـا وخطـاب مـن الملـك الأسـير يطلبـان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير.

وعلـى الـرغم مـن أن الأسـير أطلـق بموجـب معاهـدة تـم عقـدها فـي مدريـد بـين فرنسـا وأسـرة الهابسـبرج سـنة ١٥٢٦م، إلا أن فرانسـوا، بعـد إطـلاق سـراحه أرسـل فـي عـام ٩٤١هـ / ١٥٣٥م سـكرتيره (جـان دي لافوريـه » إلـى السـلطان سليمـان بهـدف عقـد تحـالف فـي شـكل معاهـدة(٥)، سُـميت فيمـا بعـد بـ « معاهـدة الامتيـازات العثمانيـة الفرنسية»، ونظرا لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها :

١ – حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

٢ – حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا. ٣ ... تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية .

٤ – الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك .

٥ – حق التمثيل القنصلي، مع حصانة قنصلية له ولأقاربه وللعاملين معه .

٦ – من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم في هذه القضايا، وإنما للقنصل الحق في الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه .

٧ – في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني، لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم إلا بحضور ترجمة القنصلية الفرنسية.

٨ – إفادات رعية الملك في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند إصدار الحكم .

٩ – حرية العبادة لرعايا الملك .

١٠– منع استعباد رعية الملك .

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني وشن الأسطول العثمانى هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لـ « شارل كنت » وفي عام ١٥٤٣م، تجمعت وحدات الأسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت نسير التابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت.

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكريا واقتصاديا وسياسيا واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما

حصلت بموجبها على الحق الكامل في الحماية تحت علمها رعايا الدول الغربية الأخرى، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوروبي .

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر، وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذي بنى عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة.

لم يستطع ملك فرنسا أن يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانية بسبب الرأى العام النصراني، فيضطر إلى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدى عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأى العام . والحقيقة التاريخية تقول إنه لا يمكن للصليبيين أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحديه القوى لهم وإن كانوا مختلفين ظاهريا تبعا للمصالح والأهواء .

وإن أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين لا أحلاف ولا مواثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين كما يبين لنا الله عز وجل في كتابه الكريم . وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدهم كي يجهزوا عليهم، وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين وأنه مهما اختلفت المصالح فهم جميعا يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان. لقد كانت تلك الامازات التي أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد .

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شئونها تحت حماية الامتيازات، وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدولة الأجنبية وخاصة في بلاد الشام.

الفصل الرابع

الخلافة العثمانية في عصر الضعف(١٥٦٦-١٧٧٤)

أولًا: أسباب ضعف الخلافة العثمانية.

- الثورات الداخلية

- قضية كريت

- الحرب مع الدولة الصفوية

- الحرب مع روسيا.

ثانيًا: عصر الركود والانحطاط المسألة الشرقية.

ثالثًا: عصر عبدالحميد الثاني.

رابعًا: الدولة العثمانية في عهد الاتحاديين.

أولًا: الخلافة العثمانية في عصر الضعف. (١٧٧٤-١٥٦٦)

١- أسباب ضعف الدولة العثمانية. ٢- أهم الثورات الداخلية. ٣- قضية جزيرة كريت. ٤- الحرب مع الدولة الصفوية.

١- أسباب ضعف الدولة العثمانية:

دخلت الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني عصر الضعف خلال قرنين من الزمان في مرحلة تشكيل الإمبراطورية العثمانية، حتى كان عصر السلطان سليمان القانوني ونهايته في عام ١٥٦٦م نهاية لعصر السلاطين العثمانيين العظام الذين أقاموا هذه الإمبراطورية ولتدخل الدولة العثمانية من بعده في ظل عهود السلاطين الضعاف بداية من عصر سليم الثاني، وإن كانت الدولة لم تضعف إذ توفر لها مجموعة من الصدور العظام قادوا الدولة في ظل وجود السلاطين الضعاف، كما ان الدولة كانت في مرحلة القوة ولذا لم تتأثر بضعف السلاطين خاصة خلال القرن السابع عشر الميلادي، ولكن فشل الدولة في حصار فيينا عام ١٦٨٣م أثبت للأوروبيين أن الجيوش العثمانية قد وصلت إلى مرحلة الضعف ومن ثم بدأت حركة الهجوم الأوروبي ضد الدولة العثمانية، فكانت هزائمها وعقدها للمعاهدات التي فقدت بمقتضاها أراضي من الامبراطورية. وقد تضافرت الظروف الداخلية من فتن ومؤامرات مع الظروف الخارجية لتدخل الدولة خلال القرن الثامن عشر الميلادي في مرحلة الضعف. ومن هذه الأسباب ما يلي:

- وجود خليط من أجناس وأديان متباينة غير متعاونة.

- انحدار الإنكشارية وفسادهم، فصاروا تهديدا يقوض بناء الدولة بعد أن كانوا سبب قوتها.

إهمال مصالح عامة الناس ومتطلبات حياتهم.

- الميول إلى استخدام القوة والتسلط والبطش وهيمنة التوجه العسكري للدولة.

– ضعف شخصية الخلفاء وانغماس الكثير منهم في الترف والمجون. زواج السلاطين ووزرائهم من الأوروبيات مما خلق عيونا وجواسيس للغرب في البلاط العثماني.

– اتساع مساحة الدولة وعدم القدرة على السيطرة عليها، وانتشار الرشوة والفساد.

–المؤامرات الأوروبية ضد الدولة، واستغلال الامتيازات الأجنبية لإضعاف الدولة.

– كثرة الثورات والفتن الداخلية، وتأخر العثمانيين عن ركب التقدم والتطور الحاصل في الغرب.

توفي السلطان سليم الثاني بعد ٨ سنوات من الحكم، وتولى بعده مراد الثالث الحكم، وكان محباً للعلم والأدب ويتقن اللغات العربية والفارسية والتركية.

٢– أهم الثورات الداخلية:

وقد شهدت فترة الضعف الكثير من الأحداث والفتن منها ثورات الانكشارية بسبب رغبتهم في استمرار الحروب، وثورة المرتزقة (علوفة جي) أو الجلالية (المتمردين على الدولة) في عهد مراد الثالث، حيث كانوا عبارة عن مجموعة من الجنود المستأجرين وفروا من المعارك مع المجر فنفاهم السلطان عقاباً لهم وأطلق عليهم اسم "فراري" تحقيراً لهم فقاموا بثورة تعاظم خطرها في بلاد الشام والعراق،كما قامت ثورة السباهي (الخيالة) في عهد محمد الثالث إذ طالبوا بتعويض إقطاعياتهم التي فقدوها بسبب ثورة الجلالية. بالرغم من حالة الضعف التي بدأت تستشري في كيان الدولة العثمانية، فقد تمكن العثمانيون من دخول تونس و"حلق الواي" وانتزاعها من الاسبان بقيادة العلج علي وسنان باشا عام ١٥٧٤م، وأصبحت تونس ولاية عثمانية يحكمها بكلربك (بايلرباي)، وغدت بلاد المغرب العربي عدا المغرب الأقصى بيد الدولة العثمانية، واحتفظ الاسبان ب"مليلة والمرسى الكبير ووهران".

٣– قضية جزيرة كريت:

واجه العثمانيون مشاكل في جزيرة "كريت" الخاضعة للبندقية حيث أصبحت مكانا للقرصنة الأوروبية وتم تهديد الطرق العثمانية في البحر المتوسط وتجارتها، وقررت

الدولة العثمانية فتح هذه الجزيرة وقد تطلب ذلك وقتاً طويلاً بسبب ضعف الجيش والبحرية العثمانية وتحالف الأوروبيين ضد الدولة العثمانية، كما أحس العثمانيون بالخطر يتهدد ممتلكاتهم في حوض البحر الأسود بسبب توسع الروس منذ أوائل القرن ١٦م.

٤- الحرب مع الدولة الصفوية:

كما استغل العثمانيون الأوضاع الداخلية في بلاد فارس (الدولة الصفوية) واستولوا على جورجيا وشيروان (تقع شمال ايران حالياً) في حرب طويلة، ولكن الصفويين ما لبثوا أن نظموا جيوشهم وتحالفوا مع النمسا واستعادوا العراق عام ١٦٢٣م، مستغلين الاضطرابات الداخلية للعثمانيين في الأناضول، ثم استطاع السلطان مراد الرابع –بعد احكام قبضته على السلطة– من استرداد بغداد عام ١٦٣٨م وابرم الصلح بين الطرفين. توالت الفتن الداخلية وتراجعت قوة الدولة خارجياً حيث برز تهديد الروس شمال البحر الأسود، والأوروبيين غرب المتوسط، والصفويين من الشرق، فاضطر العثمانيون التخلي عن مناطق كثيرة مثل أذربيجان وقفقاسيا للدولة الصفوية، ومناطق أخرى للبندقية وروسيا، كما تنازلت عن هنغاريا للنمسا بالرغم من وصول جيوش الدولة العثمانية إلى فيينا ومحاصرتها عام ١٦٨٣م، وانتهى الصراع بين الطرفين بصلح "كارلوفيتس" ١٦٩٩م (مدينة صربية حالياً)، حيث مثلت هذه المعاهدة منعطفاً خطيراً في تاريخ الخلافة العثمانية حيث توقفت عن تهديد أوروبا وأصبحت غير قادرة على مواجهة القوى المسيحية. أوضاع الدولة بعد معاهدة كارلوفيتش:

تسمى فترة الـ ١٥ سنة ما بين ١٦٨٣ و١٦٩٩م بـ "سنوات المصيبة" حيث واجهت الدولة العثمانية لوحدها تحالفاً كبيراً من معظم دول أوروبا حيث شمل ألمانيا، بولونيا، البندقية، البابوية، اسبانيا، توسكانا الكبرى (إحدى الإمارات الايطالية)، فرسان مالطة، وبعد مدة روسيا القيصرية وفرنسا وعرف باسم "الاتفاق المقدس" حيث كان يحمل الروح الصليبية والنزعة الكاثوليكية بهدف إخراج المسلمين العثمانيين من كل أوروبا. وحاولت الدولة العثمانية منذ ١٦٨٣م المحافظة على وضعها كدولة عالمية أولى، فقد كانت لا تزال تخيف العالم الغربي قرابة قرن كامل حتى الحرب الروسية،

حيث كانت في وضع لم تستطع أي دولة منفردة التغلب عليها، وكانت ما تزال تحكم أقطاراً عظيمة في القارات الثلاث.

٥- الحرب مع روسيا:

خاضت الدولة العثمانية حرباً ضد روسيا بدأت في ١٧٦٩م، بسبب إجتياح الأخيرة لبولندا وقيام الرهبان الروس باثارة الفتن في البلقان، وانهزم العثمانيون واضطروا إلى عقد أسوء صلح في تاريخهم وهو معاهدة كوجوك كينارجي ١٧٧٤م (مدينة بلغارية) حيث منح الاستقلال التام للقرم، و الذاتي لرومانيا (الأفلاق والبغدان) وأعطي لروسيا حق حماية الأرثوذكس، وأن تدفع الدولة العثمانية تعويضات قدرها ١٥ ألف كيس من الذهب لروسيا.

عصر الركود والانحطاط "المسألة الشرقية" (١٧٧٤-١٨٧٦م).

١- أوضاع الدولة في عصر الركود.

٢- مشاريع الإصلاح العثمانية.

٣- أسباب فشل الإصلاحات.

١- أوضاع الدولة في عصر الركود:

شهدت الدولة العثمانية نهاية القرن ١٨م وبداية القرن ١٩م تخلفاً شديداً في جميع الميادين وخاصة المجال الاقتصادي حيث تأزمت الأوضاع الداخلية، وبدأت البوادر الأولى لانهيار الخلافة العثمانية حيث قامت ثورة في اليونان (١٨٢٧-١٨٢١م) انتهت بالحصول على الاستقلال، وفي العام نفسه احتلت فرنسا الجزائر، وفي عام ١٨٣١م خرج محمد علي والي مصر عن طوع السلطان واستولى على سوريا وأخذ يطالب بالسلطة الموروثة في مصر والشام، ثم بعد ذلك الاستقلال، وتوقفت الحرب بين الطرفين بصلح كوتاهية ١٨٣٣م. كما حصلت صربيا على الاستقلال الذاتي في ١٨٣١م بمساعدة روسيا، وزادت تدخلات الدول الكبرى في شؤون الخلافة خاصة روسيا، فرنسا وبريطانيا. وبالرغم من كل ذلك ظلت الإمبراطورية العثمانية قوة كبرى تقوم بدورها كممثل للكيان الجماعي للعالم الإسلامي، ويرجع هذا الاستمرار دون انهيار

تام إلى عاملين أساسيين هما سياسات الإصلاح التي اتبعها السلاطين العثمانيون من سليم الأول حتى عبد الحميد الثاني لعلاج أسباب الضعف الداخلي، وطبيعة توازنات القوى الأوروبية والتي حافظت على بقاء الدولة العثمانية وانتظار الفرصة المناسبة لتقسيمها، حيث نجد أنه لمدة ما يزيد عن القرن ونصف ظل مصير الدولة العثمانية أو ما سمي ب"المسألة الشرقية" يمثل المصدر الممتد والدائم لكل الصراعات بين القوى الأوروبية.

٢- الإصلاحات العثمانية:

اتجهت مشاريع الإصلاح العثمانية إلى الجيش أولاً باعتباره أداة الحرب والحكم، ولأن الحكم العثماني كان ذو طبيعة عسكرية، إلا أن السلاطين واجهوا مصاعب كثيرة في تحديث الجيش أبرزها رفض الانكشارية لهذا النظام الجديد، بل وتآمروا على بعض السلاطين، حتى عهد محمود الثاني حيث انتهز فرصة فشلهم في إخماد ثورة اليونان وقام بمحاصرة ثكناتهم وأبادهم بالمدافع فيما عرف باسم "الواقعة الخيرية" سنة ١٨٢٦م. كما أنشأ السلطان محمود أكاديمية للعلوم العسكرية، وعدداً من المدارس العالية والثانوية والإعدادية، ومدرسة للطب في اسطنبول، وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا، وأوجد نظاماً جديداً للبريد، ووسع نطاق الشرطة الوطنية. بالرغم من عمليات التحديث الكبيرة التي قام بها محمود الثاني إلا أن الدولة كانت تفتقر إلى إدارات منظمة لإدارة الجيش والدولة معاً، كما أن الإصلاح لم يشمل حتى الآن الولايات العثمانية التابعة للدولة، وكان معنى الإصلاح المطلوب إقامة حكومة عصرية تحترم القانون وتحقق العدل والمساواة بين رعاياها وعموماً فقد استندت حركة الإصلاح العثمانية أو حركة التنظيمات إلى مرسومين أساسيين هما:

١- منشور كلخانة: صدر في شكل خط شريف همايوني بتاريخ ٣ نوفمبر ١٨٣٩م، وقرئ في حفل كبير في قصر كلخانة بحضور السلطان والوزراء وكبار رجال الدين والإدارة والجيش، وبطاركة النصارى وحاخامات اليهود وأرباب الحرف وممثلوا الدول الأجنبية، وأعلن فيه عن تأمين شعوب الإمبراطورية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مهما تنوعت ديانتهم وجنسياتهم، وقرر نظماً لدفع الضرائب

وجبايتها، ونظام الخدمة العسكرية كما أقر إنشاء إدارة مركزية قوية يكون لها إشراف وثيق على الإدارات الإقليمية في أنحاء الإمبراطورية.

٢- التنظيمات الخيرية: صدر في شكل خط شريف همايوني أيضاً في ١٨ فبراير ١٨٥٦م، عقب حرب القرم مع روسيا في عهد السلطان عبد المجيد، حيث وقفت فرنسا وبريطانيا في هذه الحرب إلى جانب الدولة العثمانية، تضمن هذا المنشور المبادئ الإصلاحية التي وردت في منشور كلخانة وأضافت عليها تمثيل الطوائف غير الإسلامية في المجالس المحلية في القرى والأقاليم، وفي مجلس القضاء الأعلى، ثم التعهد بالقضاء على مساوئ الإدارة بمحاربة الرشوة وأسباب الفساد.

٣- أسباب فشل مشاريع الإصلاح العثمانية:

بالرغم من الجهود الكبيرة في عملية الإصلاح إلا أن الدولة العثمانية فشلت في الالتحاق بركب التطور الأوروبي، وذلك لعدة أسباب منها ندرة المتعلمين النابهين القادرين على تنفيذ مشاريع الإصلاح ومقاومة رجال الدين وعامة الناس لعملية الإصلاح بسبب تشبهها بالنصارى، كما افتقرت مشاريع الإصلاح للدعم المالي بسبب الأزمات الاقتصادية المتلاحقة داخل الدولة، كما أن بعض دول أوروبا مع روسيا سعت إلى عرقلة عملية الإصلاح هذه وإفشالها بإثارة القلاقل داخل الدولة وأقاليمها خاصة في البلقان.

عهد السلطان عبد الحميد الثاني والاتحاديين (١٩٢٤- ١٨٧٦م).

تولى السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الحكم في أوت ١٨٧٦م بعد عزل أخيه السلطان مراد، وقد تعلم من قبل اللغتين العربية والفارسية ودرس الكثير من الكتب الأدبية، وعند توليه كانت الدولة غارقة في الديون، تعاني من التدخلات الأجنبية والفتن الداخلية. ويعتبر عبد الحميد الثاني أعظم سلاطين الدولة العثمانية في عصر الانحطاط حيث قام بأعمال جليلة في مجالات عديدة من أجل إنقاذ الدولة من الانهيار إلا أن التآمر الدولي والصهيوني والقومي عليه حال دون ذلك.

٢- أهم إصلاحاته:

وعد السلطان في بداية حكمه بإقامة الحياة الدستورية لكن الظروف المحيطة به وعدم نزاهة وكفاءة ساسة الباب العالي والأزمات الداخلية والخارجية التي ألمت بالدولة دفعه إلى تركيز السلطة في يده، بتطبيق المركزية الإدارية على جميع ولايات الدولة وتقييد صلاحيات الولاة العسكرية والمالية، وتم تقسيم الولايات إلى سنجقيات (متصرفيات) والمتصرفية إلى أقضية، والقضاء إلى نواحي، والناحية هي الوحدة الإدارية المصغرة يحكمها "مختار"، ونظراً لأهمية القدس فقد جعلت متصرفية مستقلة تابعة للباب العالي مباشرة، أما السلطة العسكرية فقد فصلت عن السلطة المدنية، واستقدم السلطان خبراء ألمان لتدريب الجيش العثماني وجهزه بالأسلحة الحديثة، وجعل القضاء مستقلاً وأنشئت المحاكم وكانت القوانين مستمدة من التشريعات الفرنسية عدا الأحوال الشخصية.

كما أنشأ السلطان عبد الحميد كلية للعلوم وكليات الآداب والحقوق والعلوم السياسية وأكاديمية الفنون الجميلة ومدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين والتجارة البحرية والمعلمين العليا ومدارس متوسطة وثانوية وابتدائية وعليا في مختلف المناطق، وأرسلت البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا. وإلى جانب التعليم أنشأ السلطان مؤسسة حديثة للمياه وغرفاً للصناعة والتجارة والزراعة وأنشأ إدارة للبريد ومد السكك الحديدية منها قطار الحج، ومشروع سكة حديد برلين بغداد... .

٣- أبرز الفتن والثورات في عهده:

اندلعت ثورات وفتن عديدة داخل البلقان سنة ١٨٧٦م في البوسنة والهرسك وبلغاريا بدعم وتحريض من الدول الأوروبية خاصة النمسا والصرب وروسيا، بحجة غياب المساواة والإصلاح وبعد إخمادها، استغلت روسيا الموقف بهدف ضم بلغاريا وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية عام ١٨٧٧م. حقق العثمانيون انتصاراً في بداية الحرب لكن وصول الدعم العسكري للروس حقق لهم النصر واحتلوا مدناً كثيرة واستولوا على بلغاريا وتمرد الصرب ضد الدولة فاضطرت إلى عقد معاهدة سان ستيفانو(بلدة

قرب اسطنبول) في ١٥ فبراير ١٨٧٨م، وأرغمت الدولة العثمانية على قبول شروط منها منح الاستقلال التام لصربيا، رومانيا، الجبل الأسود، والذاتي لبلغارياً، وأن تدفع تعويضات كبيرة لروسيا(٢٤٥م ليرة ذهبية)، وأن تمنح حرية الملاحة للسفن الروسية في البوسفور والدردنيل. مما أثار أطماع بقية الدول الأوروبية الكبرى، حيث سارعت إلى عقد مؤتمر برلين الأول ١٨٧٨م وحضرته انجلترا، فرنسا، روسيا، ألمانيا والنمسا، وجرى البحث في تعديل معاهدة سان ستيفانو، وتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية سراً، حيث تضمنت معاهدة برلين قضم مزيد من الأراضي والمناطق لصالح الدول الكبرى. وكشفت الدول الأوروبية عن نواياها الاستعمارية بعد ذلك، حيث احتلت فرنسا تونس ١٨٨١م، وبريطانيا قبرص ومصر ١٨٨٢.

٤- حركة الجامعة الإسلامية:

أمام خطورة الموقف سارع السلطان عبد الحميد إلى تبني حركة الجامعة الإسلامية للمصلح والفيلسوف جمال الدين الأفغاني لمواجهة الاستعمار الغربي والحركات النصرانية والقومية التي تهدد الإمبراطورية العثمانية، فركز السلطان جهوده في إحياء الخلافة وهيبتها، واهتم بالحج حيث قام بإنشاء خط السكك بين دمشق والحجاز. وبالمقابل توجه أنصار التيار العلماني والقومي إلى النشاط السري لنشر أفكارهم فأسسوا جمعيات سرية بين المدنيين والعسكريين كان منها جمعية الاتحاد والترقي وحركة تركيا الفتاة، وخاصة بعد انشغال الحكومة بتقوية الجيش ومقاومة الخطر اليهودي في فلسطين، وعرفت هذه الجمعيات نموا متسارعاً بسبب دعم الأوروبيين واليهود لها، ونجحت في القيام بانقلاب سنة ١٩٠٨م حيث تم خلع السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاديين الحكم.

الدولة العثمانية في عهد الاتحاديين:

فشل الاتحاديون في إدارة الدولة، واتجهوا إلى سياسة التتريك باستخدام الاستبداد والقمع، وشاركت الدولة العثمانية في عهدهم في الحرب العالمية الأولى وعانت من الهزيمة و تجزأت ولاياتها في أوروبا، وخضعت بلاد المشرق العربي

للانتداب البريطاني الفرنسي (اتفاق سان ريمو ١٩٢٠م) بعد قيام الثورة العربية ١٩١٦م ضد الحكم العثماني، لقد سجل النصارى الأوروبيون عن العثمانيين كل سلبية، وجالت بها أقلامهم، وحلقت بها أفكارهم، وأهملواكل إيجابية أو تجاهلوها ونسوها فلم ينظروا إلا بعين البغض فلم تبد لهم إلا المساوىء. ولكي يثيروا عليهم بقية المسلمين عدوا الحكم العثماني استعماراً، دخل إلى البلاد بالقوة وفرض سلطته بالقسوة، ودعوا العرب خاصة إلى مناهضة العثمانيين فالخلافة –حسب دعواهم– يجب أن تكون محصورة بالعرب لا اجتهاداً منهم وعلماً ولا دراية وفقهاً، وإنما حسداً وكرهاً للمسلمين كي يتحرك بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً، ويتمرد المحكوم على الحاكم باستمرار، ويهنأ لهم بعدئذ العيش، وينعمون، ويذلون المسلمين ويحكمون ديارهم، ويتحكمون بها.

جاء إلى الحكم مصطفى كمال أتاتورك في الأناضول حيث أمضى اتفاقية سيفر مع الحلفاء ١٩٢٣م وألغى الخلافة العثمانية ١٩٢٤م بعد حكم دام ٤ قرون كاملة.

الفصل الخامس

التنظيم السياسي والإداري للدولة العثمانية

خصائص النظام السياسي والإداري.

- السلطة المركزية العثمانية:

- السلطان.

- الديوان الهمايوني

- الصدر الأعظم

- العلماء

- الوزراء

- معلم السلطان

- قاضي عسكر

- الدفتردار

- الكاتب

١- خصائص النظام السياسي والإداري:

اعتمد النظام السياسي والإداري على الشريعة الإسلامية، وعلى أساس المذهب الحنفي، وبالرغم من جمود حركة الاجتهاد في العهد العثماني إلا أن السلطة العثمانية وضعت في القرنين ١٥ و١٦م بنية قانونية من طرف كبار الفقهاء منهم محمد ملاخسرو، وإبراهيم الحلبي. وحرص التنظيم العثماني على ضمان الحقوق والواجبات للرعية وكل الفئات الاجتماعية والأقاليم العثمانية وهي تنظيمات عرفت باسم "قانون نامة" أصدر الأول منها السلطان محمد الفاتح وتضمن الضرائب المفروضة على الرعايا وموظفي الحكومة والسلطات والشؤون العامة، والثاني أصدره السلطان سليمان القانوني شمل الإقطاع والضرائب والقضاء وشؤون الرعية، وكان لكل ولاية قانون.

وقد أخذ العثمانيون في نظمهم عن الفرس والبيزنطيين والأتراك السلاجقة، وخاصة العباسيين والدول الإسلامية السابقة. وقد اعتمد النظام العثماني على الصفة العسكرية حيث غلبت على التنظيم الإداري والسياسي بحكم توجه الدولة نحو الفتوح والجهاد، كما اعتمد النظام العثماني على الرقيق والعبيد الأتراك فأغلب القادة العسكريين والحكام يأتون من سراي السلطان (القصر)، حيث كانت الدولة ترعى الأطفال والشباب من ضحايا الحروب ومن رعاياها في البلقان والأرياف حيث يؤخذون إلى قصر السلطان ويربون تربية خاصة ويرتبطون بالسلطان في الحرب والسلم(عبيد السلطان)، فكان منهم الحكام والقادة والانكشارية وسلاح الفرسان.

٢- السلطة المركزية العثمانية :

وعرف هذا النظام باسم "الدفشرمة".

السلطان:

لقد كانت سلطة الأمير الغازي تنبع من كونه رئيساً للعشيرة وقائداً للطليعة الأولى من الغزاة، فكانت عائلة الأمير الغازي تسيطر بصفة مطلقة على مقاليد الحكم والسياسة في القبيلة، فمن هذه العائلة كان ينتخب رئيس الامارة، وحتى فتح القسطنطينية كان لأعيان الإمارة في الدولة العثمانية نفوذاً قوياً، وخاصة ما تعلق

بانتخاب الأمير الغازي من عائلة آل عثمان حيث لم يكن هناك قاعدة أو قانون ثابت لاعتلاء منصب الامارة أو السلطنة العثمانية، ففي البداية كان اختيار الأمير الغازي من عائلة آل عثمان، على أن يكون المرشح على قدر كبير من الكفاءة والاقتدار، دون النظر على فروق السن، الأمر الذي فتح باباً للتنافس بين الإخوة على العرش، إلا أنه بعد تولي سلين الثاني العرش (١٥٦٦م) بدأ العمل بتعيين أكبر الأبناء سناً.

لقب السلطان ب "البادشاه" أي حافظ النظام وترتبط به الدولة كلها من العسكر والموظفين والرعية، وله السلطة المطلقة والمتصرف في السلطتين التنفيذية والقضائية، وكان السلاطين ما بين ق ١٣و١٦م أقوياء وذوي شخصية محورية ولكن بعد سليم الثاني تولى الحكم سلاطين ضعفاء أهملوا شؤون الحكم واستحوذ الصدور العظام على السلطة واقتصر دور السلطان على الظهور في المناسبات العامة والاحتفالات، مما تسبب في ضعف الجهاز الإداري وانتشار الفساد والرشوة والوساطة. وأقام السلطان منذ ١٤٥٣م في اسطنبول وله قصر خاص به قسمان داخلي له ولعائلته، وخارجي يصل بينهما "باب السعادة" حيث كان السلطان يستقبل الشعب ويقيم العدالة . ويحضر الاحتفالات ويعقد "المجلس الهمايوني"(السلطاني) ويستقبل السفراء والقناصل وكبار الموظفين. يمثل السلطان قمة السلطة السياسية على رأس الدولة، فهو رئيس الهيئة الدينية، وقائد الجيش، ورئيس الجهاز السياسي والإداري للدولة، سواء في العاصمة أو الولايات، والسلطان العثماني يعتبر نفسه رئيس دولة إسلامية لا تقل عن الدول الإسلامية التي أقامها العرب، وهو "البادشاه" كما ذكرنا سابقاً، أو "الخنكار" أي المحور الأساسي لحفظ نظام الدولة، ترتبط به مؤسسات الدولة وأجهزتها السياسية جميعاً، كالأرستقراطية الحربية والموظفون المدنيون والهيئة الدينية و"الرعية"، وكان السلطان يمارس سلطته من خلال إصدار فرمانات وأوامر سلطانية، حيث لم توجد مؤسسات السلطة التشريعية، فقد كان التشريع يستند إلى الشريعة الإسلامية، وقد وجد الفقهاء في روح الشريعة نفسها، ما يمنح السلطان المبادرة لإصدار القوانين أو التنظيمات لصالح الرعية، شريطة عدم مخالفتها للشريعة الإسلامية.

ومع أن السلاطين العثمانيين لم يحملوا في البداية لقب "خليفة" إلا أنهم مارسوا سلطاتهم استنادا إلى "حق ديني" ويرروا ذلك بأنهم يستخدمون هذه السلطة لرعاية مصالح الإسلام والمسلمين، حيث كان من مسؤولياتهم حماية حدود الدولة ضد المسيحيين، وحماية الأماكن المقدسة، وتنظيم الحج، واحترام الشريعة الإسلامية ورجالها، والخضوع لأحكامها في جميع أعمالهم بشكل عام.

ويلاحظ أن مفهوم الحكم العثماني كان يرتكز من حيث الأساس على الدعائم الإسلامية، إلى جانب تأثره إلى حد كبير بالتقاليد التركية القديمة، وكان السلاطين يفوضون صلاحياتهم الدنيوية للصدور العظام (رؤساء الوزارات)، أما الصلاحيات الدينية فكانوا يفوضونها لقضاء العسكر في البداية ثم صاروا يفوضونها لشيخ الإسلام فيما بعد، وكان أمر تعيين الصدور العظام وشيوخ الإسلام في يد السلاطين بشكل مطلق، وكانت التقاليد تقضي بأن يجتمع الديوان الهمايوني ويصدر قراراته ولا تنفذ إلا بعد تصديق السلطان عليها، مما يجعل السلطان مرجعاً نهائيا في كل الأمور، ويشكل عام لم تكن تحد من السلطة المطلقة للسلاطين سوى قواعد الشريعة الإسلامية وكذلك قواعد البلاط الثابتة، فضلا عن بعض القواعد العرفية المتوارثة، إلى جانب القرارات المدونة للسلاطين السابقين. ولعلنا نستنتج من هذه الصلاحيات الواسعة والمطلقة للسلاطين، أن قوة المؤسسة الحاكمة كانت تعتمد بشكل أساسي على شخصية السلطان ومدى قوته، كذلك لم يكن هناك نظام ثابت لتولي السلاطين، فمن حق السلطان أن يختار خليفته، الذي قد يكون الان الأكبر أو غيره.١ لجأ السلاطين إلى تعيين أبنائهم "بكوات" على أقاليم الدولة بهدف تدربهم على شؤون الحكم، إلا أن ذلك جاء بنتائج عكسية حيث ظهرت التمردات والاضطرابات، ولذلك وضع السلطان محمد الفاتح قانوناً غريباً حيث سمح لمن يتولى من بعده القضاء على الإخوة عند الوصول إلى العرش حفاظاً على استقرار الدولة، وفي أواخر القرن ١٦م عوض هذا القانون بوضع الأمراء في أجنحة من السراي محاطة بالحدائق وبها أسوار عالية لعزلهم عن العالم الخارجي سميت ب"الأقفاص"، مما أضعف الدولة وعرضها للخطر عند توليهم للحكم.

✓ **الديوان الهمايوني:**

يشبه المحكمة العليا حيث يستمع إلى الشكاوي ويقضى على المظالم ويناقش أمور الدولة والتعيينات، وكان يرأسه السلطان ثم تولى ذلك الصدر الأعظم بعد محمد الفاتح، ويضم إدارات الدولة الرئيسية وهي الجانب السياسي الذي يحافظ على سلطة الدولة والأمن الداخلي والدفاع، والجانب القضائي حيث يمثله قاضي عسكر (الروملي والأناضول) وفوقهم المفتي الأكبر، أما الجانب المالي فهو بيد الدفتردار ومعه موظفين مثل النشانجي (يتحقق من مطابقة الرسائل والأوامر لقوانين الدولة)، كما سُمح لأميرال الأسطول "قبطاني ديريا" و"آغا الانكشارية" (قائد الانكشارية) بحضور المجلس.

منذ عصر السلطان محمد الفاتح، بدأ السلطان يترك رئاسة الديوان المباشرة لوزيره الأعظم، حيث كان يقوم هو بمراقبة أعمال الديوان من خلال نافذة تطل على الديوان مباشرة، ومنذ ذلك الحين، استحدث السلطان ما عرف ب"حجرة العرض" لعرض شئون الدولة الهامة التي تحتاج إلى رأي السلطان، وذلك عقب انتهاء أعمال الديوان يومين أسبوعياً. وكان الديوان الهمايوني يعقد أربع مرات أسبوعياً، وذلك خلال القرن ١٦م، واذا كان الديوان هو المجلس الذي يباشر السلطان كافة صلاحياته من خلاله لإدارة شئون البلاد عامة، فقد كان للسلطان مجالس أخرى يباشر من خلالها أيضاً مهامه الطارئة والخاصة، فكان يعقد ديوان آخر يعرف باسم "ديوان الغلبة" بغرض استقبال السفراء الأجانب، ولتوزيع المرتبات الدورية لعسكر "الدركاه العالي" (قابو قولي)، أما في الظروف الطارئة وغير العادية للدولة، فكان السلطان يدعو أعضاء الديوان لعقد جلسة طارئة، وعندئذ يعرف هذا الاجتماع الطارئ "آياق ديواني" (ديوان الوقوف).

لقد كان الديوان الهمايوني جهاز الدولة المركزي عند العثمانيين، حيث حقق أعظم نجاحاته بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وبشكل عام خول هذا الديوان أعلى السلطات في النظام الإداري العثماني، وهو يمثل امتداداً للديوان الذي عرفه المسلمون منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والذي استمر تشكيله بشكل أو آخر مع تعاقب الدولة العثمانية... وكانت جلساته تعقد كل يوم تقريباً، وكان قاضي عسكر والدفتردار يشاركان فيه أحياناً، وقد نظم قانون "نامة".

تشكيلات وصلاحيات وأسلوب عمل الديوان الهمايوني، ويلاحظ المؤرخون أن بدأ يفقد أهميته وسلطاته منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر.

الصدر الأعظم:

كانت الإدارة العثمانية في البداية لا تضم إلا وزيراً واحداً، ثم ضمت وزيراً ثانياً، وصار الوزير الأول هو "الصدر الأعظم"، وكان الوزير يختار من رجال العلم، ثم أصبح يختار من الدفشرمة، حتى أواسط القرن السابع عشر، وعموما كان هو الوكيل المطلق للسلطان العثماني، يتمتع بصلاحيات واسعة، ولا يسأل إلا أمام السلطان وحده، يتقدم التشريفات، ثم صار وكيلاً عن السلطان ليس فقط في أمور الدنيا بل حتى في أمور الدين، ومسؤولا عن تأمين نظام السلطة، وتنفيذ الأحكام.

يقوم الصدر الأعظم رفقة حاشية كبيرة بتفقد أحوال الناس، والترسانة الحربية والبحرية، وإدارة الأوقاف المهمة، وتزداد صلاحياته عندما يخرج للحرب، حيث يصبح بوسعه إصدار قرارات نهائية على أن يكون مسئولاً أمام السلطان عن كل ما أصدره من قرارات، وبشكل عام كان الصدر الأعظم يصدر قراراته ويمارس صلاحياته من خلال دواوين خاصة منها: ديوان العصر، وديوان الأربعاء..... الخ، رغم أنه كان يرأس الديوان الهمايوني، الذي كان ديواناً خاصاً بالسلطان.

كان الصدر الأعظم الرجل الثاني في الدولة مهمته تنفيذ أوامر وقرارات السلطان ونقلها إلى حكام الولايات وكبار الموظفين، ويبلغ شكاوي العلماء والوزراء والحكام والعسكر...، ويشرف الصدر الأعظم على شؤون السراي من خلال "القابي آغاسي"(مشرف العبيد)، وكان يشرف على دواوين الدولة ويراقبها.

✓ **العلماء**

كان يرأسهم شيخ الإسلام حيث كان يمتلك سلطة اقتراح القضاة والمدرسين للأقاليم وعزلهم ويراقب العلماء وهو ممثل السلطة الدينية المطلق للسلطان، وكانت فتواه

وراء خلع عدد من السلاطين أو الصدور العظام، ونجد أيضا من العلماء "قاضيا عسكر" وهما مسؤولان عن إدارة الشريعة وتعيين القضاة وعزلهم والموظفين الدينيين ويحضران الديوان الهمايوني.

✓ **الوزراء**

لقد عرف العثمانيون نظام الوزارة منذ بداية دولتهم، فكان هناك وزير واحد ثم أصبح وزيران، أحدهما وزير أعظم، ثم بلغوا أربعة وزراء في عهد مراد الثاني، ثم زادوا إلى سبعة في عهد سليمان القانوني، واستمرت أعداد الوزراء في التزايد حتى بلغوا ٢٣ أواخر القرن السادس عشر، وقد انقسم الوزراء إلى فريقين وزراء الداخل أي العاملين تحت القبة، والأخرون وزراء الخارج أي المعينون على الولايات أو الامارات الكبرى (بكلربكية)، وقد تضاءل عدد الوزراء

فيما بعد نتيجة تزايد أعباء الدولة المادية، إلى أن انقطع تعيين الوزراء بعد عام ١٧٣١م، وذلك لنقل صلاحياتهم إلى الباب العالي.

✓ **معلم السلطان**

كان يحظى بنفوذ واسع حيث يبدي النصيحة للسلطان وله دور في اختيار كبار الموظفين.

✓ **قضاة العسكر:**

يعتبر قاضي العسكر أعلى مرجع شرعي وقضائي في الدولة بعد شيخ الإسلام، فحتى أواخر عهد السلطان محمد الفاتح لم يكن هناك في الدولة أكثر من قاضي عسكر واحد، إلا أنه عقب اتساع فتوح الدولة في الروملي والأناضول قسم هذا المنصب إلى قسمين: قاضي عسكر الروملي، وقاضي عسكر الأناضول، وكان كل واحد منهما ينظر في الأمور الشرعية والقضائية التي تتعلق بمنطقته في الديوان الهمايوني، كما كان لكل منهما ديوان خاص به للنظر في الأمور المتعلقة برعايا منطقته والمحولة عن الديوان الهمايوني.

كـان لهـذا المنصـب أهميـة خاصـة فـي الدولـة العثمانيـة، فمـا تكـاد تخلـو أي وثيقـة إداريـة أو ماليـة أو عسـكرية مـن توقيـع هـذين القاضـيين اللـذين كانـت لهمـا صـلاحيات تعيـين القضاة في الدولة.

✓ **الدفترداريون:**

الـدفتردار هـو وكيـل السـلطان فـي الشـئون الماليـة، ونـاظر خزينـة الـدفاتر الماليـة، وهـو مسـئول مسـئولية مباشـرة أمـام السـلطان ووزيـره الأعظـم عـن ميزانيـة الدولـة وماليتهـا، وكـان فـي عهـد الامـارة ومطلـع عهـد السـلطنة هنـاك دفتـردار واحـد، ولكـن بعـد اتسـاع فتوحـات الدولـة انقسـم هـذا المنصـب أيضـاً إلـى قسـمين: " دفتـردار الروملـي" وعـرف باسـم بـاش دفتـردار، و"دفتـردار الأناضـول"، وكـان كـل منهمـا يقـوم بـالنظر فيمـا يتعلـق بمنطقتـه مـن الأمـور الماليـة، وكـان لكـل دفتـردار ديـوان خـاص بـه ينظـر فيـه الأمـور المحولـة إليـه مـن الديوان الهمايوني.

✓ **الكاتب**

موظـف يقـوم بالكتابـة الرسـمية والمراسـلات الديوانيـة والشـؤون الماليـة وغيرهـا، وكـان للكتـاب دور مهـم فـي الدولـة حيـث كـانوا أسـاس عمـل إدارتهـا واعتمـد علـيهم الصـدور العظـام أواخـر القـرن ١٧م فـي العمـل الدبلوماسـي، ولهـم دور مهـم فـي الجانـب الثقـافي والعلمي.

لا يمكننـا أن نتجاهـل دور الشـعب فـي التـأثير علـى اسـتقرار أوضـاع الدولـة بـالرغم مـن أنـه لـم يكـن جـزءا مـن تنظيمهـا السياسـي حيـث نجـد أحيانـا تحـالف الانكشـارية مـع الحـرفيين والتجـار والقيـام بثـورات واضـطرابات لقيـت تأييـدا مـن عامـة الشـعب بسـبب ظلـم السـلطة الحاكمة واستبدادها.

قسمت الإدارة في الولايات العثمانية إلى أقسام إدارية عين عليها موظفون ينوبون عن السلطان في حكمها، ويمارسون فيها كل السلطات، ولهم إمتيازات مثل استخدام الراية أو اللواء، وأبرز هذه الأقسام هو:

١- الصنجق:

هو أصل الادارة، يعين السلطان لإدارته سلطتين تنفيذية تسمى "السبيك" من العسكر، وشرعية يمثلها أحد العلماء " القاضي". تغير اسم الصنجق بسبب فتوحات وتوسعات الدولة العثمانية حيث وضع تحت إشراف "بكلر بك" (أمير الأمراء)، ثم أعطي اسم "أيالة" حيث بلغت أيالات الدولة العثمانية الأربعين أواخر القرن ال١٧م، وأصبح البكلربك يلقب الوالي أو الباشا وكانت الأيالات مختلفة في حكمها فبعضها لها شبه استقلال ذاتي وأخرى إقطاعية مثل الشام، وكان الوالي يأخذ واردات الأيالة وينفق منها على الجوانب العسكرية والإدارية ويرسل الباقي إلى الأستانة.

٢- الحكومة

هي إدارة الصناجق الوراثية التابعة لبعض زعماء القبائل في شرق الأناضول، وتعهد فيها الواردات إلى بيك القبيلة مقابل تقديم عدد من الجنود من قبيلته، ويعين السلطان في المدن الهامة قاضيا ويقيم حامية عسكرية للانكشارية.

٣- التيمار:

هو نظام اقتصادي تبناه العثمانيون في معظم البلاد بهدف توفير سبل العيش للفرسان السباهية، وتعني تسليم الأرض للمحاربين وجباية وارداتها من الضرائب، مقابل إلزامهم بالخدمة العسكرية والقتال في صفوف الجيش العثماني. وقد وفر هذا النظام خدمات كثيرة للدولة العثمانية منها تثبيت نفوذ الدولة في الأرياف والحصول على الضرائب والموارد المالية. قسم السلطان الأراضي على المحاربين كل حسب رتبته أو وظيفته وهي ثلاث أقسام:

-إقطاع سلطاني (الخواص الهمايوني) وهي ممتلكات التاج أو السلطان يقطعها لمن يريد من الأسرة الحاكمة.

-إقطاع خاص: وهو للوزراء والبكلربايات وبكوات الصناجق وكان يتجاوز دخله ١٠٠ ألف أقجة سنويا.

-التيمار أو الزعامة: يمنحان للفرسان السباهية بحسب الرتبة والخدمات، وينتقل إلى الابن بعد الوفاة وإذا لم يكن له فيظل إقطاعا شاغراً وتؤخذ مداخيله لبيت المال.

والإقطاع عادة يمنح للمحارب فهو إقطاع عسكري أساساً ويمنح للعاملين في الحكومة المركزية والسراي والمقربين من السلطان ثم بعد ضعف الدولة أصبح يمنح للمدنيين. أما الأراضي التي تمنحها الدولة للمؤسسات الدينية والخيرية

والتعليمية فإنها إقطاع مدني عام لا تجبى منه الرسوم أو الضرائب بل ينفق منه على التعليم والمساجد والفقراء...و تدخل هذه الراضي ضمن الأوقاف (الحبوس).

طبيعة الجهاز الاداري:

كان البكلربك أو الباشا على رأس التنظيم الإداري في الأيالة وتحت إمرته السباهية، ثم بكوات الصناجق الذين يحكمون المدن المهمة ثم الألالاي بك وهم من زعماء الصناجق، ثم "الصوباشي" ويدير وحدة صغيرة من الصنجق، و"شيري باشي" حيث يساعد القاضي عند السلم وينفذ أوامره في الأمن والقضاء كما ينظم السباهية خلال الحرب. وهناك ال"الدفترداري" وهو مسئول عن واردات الأيالة وإنفاقها، والكيخيا وهو نائب الوالي وأمين الشاوبشية (يساعد القاضي في تنفيذ الأحكام) والتذكرجي ويكتب المراسلات ويحفظها، وكان هؤلاء أعضاء في الديوان الذي يساعد الوالي في مهامه وينظر في أمور السباهية والإقطاع وشكاوى الناس. أما الحاميات "الإنكشارية" في المدن الرئيسية فكانت بهدف منع السلطات المحلية ممارسة السلطة لصالحها وتختلف مكانتها وعددها حسب حجم المدينة، وتعمل بأوامر السلطان مباشرة والسلطة المركزية، وتقوم أيضا بحفظ الأمن وحركة المال المرسل للخزينة والقضاء على الثورات الداخلية.

انتقلت السلطة في القرن ال ١٧م إلى الانكشارية أنفسهم وظهرت طبقة حاكمة جديدة منهم في الأيالات خاصة البعيدة مثل الجزائر وتونس بعد أن ضعفت السلطة المركزية.

المراجـــــــــــع

- يلماز أوزوتا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مج١، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا- استانبول، ١٩٨٨م.

- عبداللطيف الصباغ: تاريخ الدولة العثمانية، ٢٠١٣م.

- تيسير جبارة: تاريخ الدولة العثمانية ١٢٨٠- ١٩٢٤م، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا- جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ٢٠١٥م.

-على محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١م.

- عبد الرحمن قدورى: تاريخ الدولة العثمانية، مذكرة تاريخية ،٢٠١٩.

- أبي مصعب السورى: مختصر تاريخ الدولة العثمانية، بيت القدس، ٢٠١٩م.

- محمد فؤاد كويريلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.

- سيد محمد عبدالعال: تاريخ الدولة العثمانية دراسة سياسية وحضارية، مذكرة دراسية.

الخرائط والصور

دولة السلاجقة

الدولة العثمانية
من البدايه إلى النهايه
١٢٩٩م - ١٩٢٤م

الدولة العثمانية
في أقصى اتساعها

1588م
السلطان
مراد الثالث
العاصمة
سيطرة مباشرة
تحت احتلال الأجانب

الامبراطورية العثمانية : خريطة
الامبراطورية فى أقصى امتدادها
مملكة فرنسا
البحر الأسود
ولاية مصر
بلاد العرب
الدولة العثمانية فى أقصى اتساعها

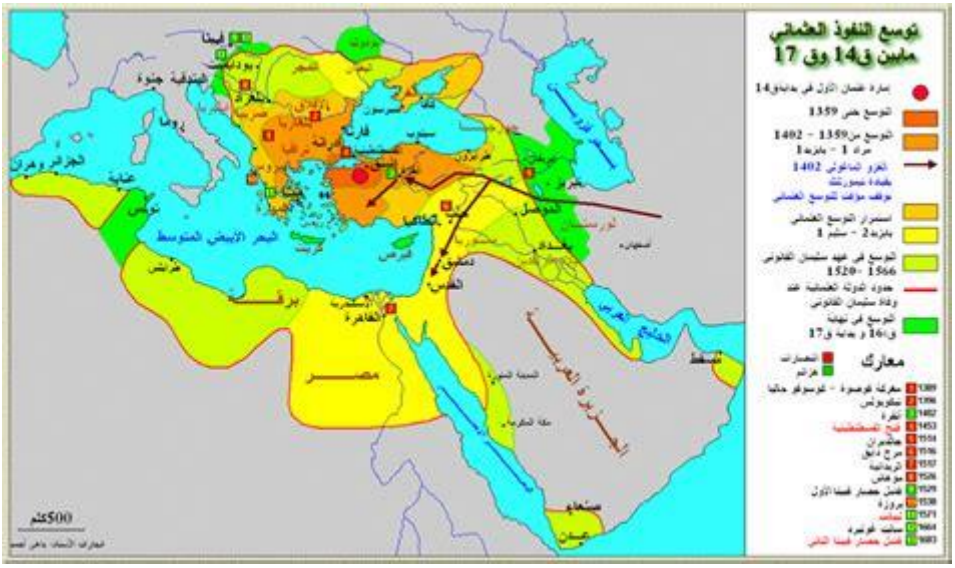

توسع النفوذ العثماني
مابين ق14 وق 17
التوسع حتى 1359
التوسع في عهد سليمان القانوني
1520- 1566
معارك
البحر الأبيض المتوسط
مصر
500كلم

خريطة رقم (٢٣) الحرب الصفوية العثمانية

خريطة الدولة العثمانية في نهاية القرن العاشر الهجري

الخريطة من وضع البلجيكي (أورتيليوس إبراهيم) المشهور بـ إبراهيم الفلمنكي ، وهو من مواليد ١٤ أبريل ١٥٢٧م(٩٣٤هـ) وتوفي ٤ يوليو ١٥٩٨م(١٠٠٧هـ). وكان رسام خرائط وتاجر في الخرائط والكتب والآثار،ونشر أول أطلس حديث .

500
المنصة

خريطة رسمت في عهد السلطان سليمان القانوني

سلاطين الدولة العثمانية
من حكموا العالم على مدار ستة قرون

السلطان سليمان القانوني

موقع النورس العربي
www.alnwrsraby.net
سلاطين الدولة العثمانية بالترتيب الزمني ومعلومات عنهم